اَلْمَزْمُورُ الْمِئَةُ وَالْحَادِي عَشَرَ

1 هَلِّلُويَا! أَحْمَدُ الرَّبَّ بِكُلِّ قَلْبِي فِي مَجْلِسِ الْمُسْتَقِيمِينَ وَجَمَاعَتِهِمْ. 2عَظِيمَةٌ هِيَ أَعْمَالُ الرَّبِّ. مَطْلُوبَةٌ لِكُلِّ الْمَسْرُورِينَ بِهَا. 3جَلاَلٌ وَبَهَاءٌ عَمَلُهُ، وَعَدْلُهُ قَائِمٌ إِلَى الأَبَدِ. 4صَنَعَ ذِكْراً لِعَجَائِبِهِ. حَنَّانٌ وَرَحِيمٌ هُوَ الرَّبُّ. 5أَعْطَى خَائِفِيهِ طَعَاماً. يَذْكُرُ إِلَى الأَبَدِ عَهْدَهُ. 6أَخْبَرَ شَعْبَهُ بِقُوَّةِ أَعْمَالِهِ لِيُعْطِيَهُمْ مِيرَاثَ الأُمَمِ. 7أَعْمَالُ يَدَيْهِ أَمَانَةٌ وَحَقٌّ. كُلُّ وَصَايَاهُ أَمِينَةٌ، 8ثَابِتَةٌ مَدَى الدَّهْرِ وَالأَبَدِ، مَصْنُوعَةٌ بِالْحَقِّ وَالاِسْتِقَامَةِ. 9أَرْسَلَ فِدَاءً لِشَعْبِهِ. أَقَامَ إِلَى الأَبَدِ عَهْدَهُ. قُدُّوسٌ وَمَهُوبٌ اسْمُهُ. 10رَأْسُ الْحِكْمَةِ مَخَافَةُ الرَّبِّ. فِطْنَةٌ جَيِّدَةٌ لِكُلِّ عَامِلِيهَا. تَسْبِيحُهُ قَائِمٌ إِلَى الأَبَدِ.

صلاح الرب

المزموران 111، 112 مترابطان ومتشابهان في اللغة والتركيب والمحتوى، يبدأ كلاهما بالكلمة «هللويا» وهي كلمة التهليل للرب، وتعني تسبيحه وحمده لأجل أعمال نعمته في الخليقة. ونرى في أولهما قوة الله وصلاحه وعدالته، وفي ثانيهما نجاح الأتقياء وصلاحهم وعدالتهم، فصلاح الرب يقود المؤمن للتقوى، ويطبع على قلبه صفات ربه. ويوضح المزموران ما أمر المسيح به: «كونوا أنتم كاملين كما أن أباكم الذي في السماوات هو كامل» (مت 5: 48)، والنصيحة الرسولية: «كونوا متمثِّلين بالله كأولاد أحبّاء، واسلكوا في المحبة كما أحبنا المسيح» (أف 5: 1، 2). والفرق بين صفات الله وصفات المؤمن أن صفات الله مُطلقة وكاملة من الأزل وإلى الأبد، بينما صلاح المؤمن نسبي بقدر ما يُخلص للرب. ويبدأ هذا الصلاح يوم يعرف المؤمنُ الربَّ ويملِّكه سيداً لحياته.

يتكون كلٌّ من مزموري 111، 112 من عشر آيات، تكوِّن اثنتين وعشرين شطرة، تبدأ كل شطرة منها بحرف أبجدي من الحروف العبرية التي عددها 22 حرفاً. ويبدأ مز 112 من حيث ينتهي مز 111، فإن مز 111 ينتهي بالقول: «رأس الحكمة مخافة الرب» ويبدأ مزمور 112 بتطويب الرجل «المتقي الرب»، لأن مخافة الله هي تقوى الله التي تؤدي إلى سعادة الحياة.

ويتبع مزمورا 111، 112 ستَّةُ مزامير (113–118) يسمِّيها بنو إسرائيل مزامير التهليل المصري، لأنهم يترنَّمون فيها للرب الذي حرَّرهم من عبودية فرعون. وكانوا يرنمون مزموري 113، 114 قبل أن يأكلوا وليمة الفصح، كما كانوا يرنمون المزامير 115 إلى 118 بعد تناول وليمة الفصح، وهي المزامير التي قيل عنها إن المسيح وتلاميذه سبحوها قبل أن يخرجوا إلى جبل الزيتون ليلة القبض على المسيح (مر 14: 26).

في هذا المزمور نجد:

أولاً – تمجيد الرب الصالح (آية 1)

ثانياً – براهين صلاح الرب (آيات 2–9)

ثالثاً – مخافة الرب الصالح (آية 10)

أولاً - تمجيد الرب الصالح
(آية 1)

1 - نمجِّده بالتهليل: «هللويا» (آية 1أ). «هللويا» كلمة عبرية، معناها «سبِّحوا يهوه» وقد أصبحت كلمة دولية في كل لغات العالم، شأنها شأن الكلمة العبرية «آمين» التي تعني «ثابت» و«راسخ» و«صادق». فعندما نقول «آمين» بعد الصلاة نقصد بها: «ليكن هكذا» «ليتمَّ هذا الأمر» «استجب» لأنك يا رب ثابت وراسخ وصادق وأمين، لابد أن تحقِّق مواعيدك في الاستماع لمن يدعوك. يهلل المرنم للرب ويدعو الآخرين لتسبيحه «لأن الترنُّم لإلهنا صالح، لأنه مُلذٌّ. التسبيح لائق» (مز 147: 1).

2 - نمجِّده بالحمد: «أحمد الرب بكل قلبي» (آية 1ب). يحمد المرنم الرب الصالح من قلبه بسبب العلاقة الحبية التي تربطه به، لأن «سرَّ الرب لخائفيه، وعهده لتعليمهم» (مز 25: 14). ويستحق الرب الحمد بكل القلب الموحَّد في مخافته، فهو الإله الواحد القدوس الذي نشكره في السر والعلانية، في أوقات الفرح كما في أوقات الضيق، كما قالت النصيحة الرسولية: «أعلى أحدٍ بينكم مشقات؟ فليصلِّ. أمسرور أحد؟ فليرتل» (يع 5: 13).

3 – نمجِّده مع المستقيمين: «في مجلس المستقيمين وجماعتهم» (آية 1ج). يسبِّحه في مجلس دائرته الخاصة حيث يجتمع بأصحابه المستقيمي القلوب، فهُم الأتقياء الذين يتَّفقون معه في حب الرب، وشعاره: «القديسون الذين في الأرض والأفاضل كل مسرتي بهم» (مز 16: 3). وكأنه يقول لهم: «اهتفوا أيها الصدِّيقون بالرب. بالمستقيمين يليق التسبيح» (مز 33: 1). فهو «إلهٌ مهوب جداً في مؤامرة القديسين، ومخوفٌ عند جميع الذين حوله» (مز 89: 7).

ثانياً - براهين صلاح الرب
(آيات 2-9)

مظاهر صلاح الله كثيرة يورد المرنم منها خمساً:

1 - أعمال الرب عظيمة: «عظيمة هي أعمال الرب، مطلوبة لكل المسرورين بها» (آية 2). يظهر صلاح الرب العظيم في أعماله الصالحة العظيمة في قوتها وتأثيرها ووفرتها. «ما أكرم أفكارك يا الله عندي، ما أكثر جملتها. إن أُحصِها فهي أكثر من الرمل» (مز 139: 17، 18). هو الذي يعطي الجميع بسخاء ولا يعيِّر، وهو صالحٌ لكل الذين يطلبونه بالحق. «كل عطية صالحة وكل موهبة تامة هي من فوق، نازلة من عند أبي الأنوار، الذي ليس عنده تغيير ولا ظل دوران. شاء فولدنا بكلمة الحق» (يع 1: 17، 18). خلق الكون والإنسان، ثم رأى أن كل ما عمله حسنٌ جداً (تك 1: 31). وعنايته عظيمة وصالحة، فهو «الساقي الجبالَ من علاليه. من ثمر أعمالك تشبع الأرض.. ما أعظمَ أعمالك يا رب. كلها بحكمة صَنعْتَ. ملآنةٌ الأرضُ مِن غِناك.. يكون مجدُ الرب إلى الدهر. يفرح الرب بأعماله» (مز 104: 13، 24، 31).

وعظيمة هي أعمال المسيح، وجميعها تتَّفق مع أقواله. أشبع خمسة آلاف شخص من خمسة أرغفة وسمكتين (يو 6: 1–15) لأنه لم يشأ أن يصرف سامعيه جياعاً لئلا يخوروا في الطريق، ثم قال: «أنا هو خبز الحياة» (يو 6: 41). وقال: «أنا هو نور العالم. من يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة» (يو 8: 12) ثم فتح عيني المولود أعمى (يو 9). وقال: «أنا هو القيامة والحياة. من آمن بي ولو مات فسيحيا، وكل من كان حياً وآمن بي فلن يموت إلى الأبد» (يو 11: 25، 26)، ثم أمر لعازر الذي كان قد مات منذ أربعة أيام أن يخرج من قبره، فقام (يو 11: 43).

على أن أعظم أعمال الله الصالحة هي تغيير قلب الإنسان وغفران خطاياه، فهذا عمل النعمة الإلهية. وفي هذا يقول الوحي عن المؤمنين: «لأننا نحن عمله، مخلوقين في المسيح يسوع لأعمالٍ صالحة قد سبق الله فأعدَّها لكي نسلك فيها» (أف 2: 10). فالرب يصنع من الشرير إنساناً جديداً، يُقال عنه: «إن كان أحدٌ في المسيح فهو خليقة جديدة» (2كو 5: 17). وهذا التغيير يحدث للتائبين الراجعين إلى الله.

هذه الأعمال العظيمة الصالحة «مطلوبة لكل المسرورين بها» بمعنى أنهم يجب أن يدرسوها ويتأملوها ويفكروا فيها، وطوبى للإنسان الذي «في ناموس الرب مسرَّتُه، وفي ناموسه يلهج نهاراً وليلاً» (مز 1: 2).

2 - أعمال الرب عادلة: «جلالٌ وبهاءٌ عمله، وعدله قائم إلى الأبد» (آية 3). أعمال الرب جليلةٌ وبهيَّةٌ تُظهِر عدالته الدائمة التي لا تتغيَّر. والرب القوي عادل في كل ما يفعل. قال عنه كليمه موسى: «هوذا الصخر الكامل صنيعه. إن جميع سبُله عدلٌ. إله أمانة لا جور فيه. صدِّيقٌ وعادلٌ هو» (تث 32: 4). وقال الله على فم نبيِّه إشعياء: «هكذا يقول الرب قدوس إسرائيل وجابله (الذي خلقه): اسألوني عن الآتيات (عن المستقبل). من جهة بنيَّ ومن جهة عمل يدي أوصوني. أنا صنعت الأرض وخلقت الإنسان عليها. يداي أنا نشرتا السماوات، وكل جندها أنا أمرت» (إش 45: 11، 12).

وقد نتساءل: إن كان الله جليلاً وبهيّاً في ما يفعل، وإن كانت عدالته دائمة وفاعلة، فلماذا يسمح بظُلم الضعيف؟ ولماذا يترك المؤمنين يعانون من الأشرار؟ ولماذا يسمح للقوي أن يظلم غيره، أو أن يفرض رأيه عليه؟ فما أكثر ما نرى ظلم رأس المال للعمال، وظلم أصحاب الأملاك للفلّة، وظلم الحكّام للمحكومين.. والإجابة أن تعاملات الله مع الشرير هي تعاملات عدالة، فقد أعطاه حرية التصرُّف لأنه لا يُكرِه أحداً على عمل الخير، وهو يُطيل أناته على الشرير لعله يتوب. وفي الوقت نفسه لا بد أن ينقذ المؤمن من ضيقته الوقتية، كما قال المسيحُ إن ضيق ملاك كنيسة سميرنا ستكون مدته «عشرة أيام» (رؤ 2: 10) فهو لا يدوم ولا يستمر. ويقول الوحي للمؤمنين المتألمين: «مع أنكم الآن، إن كان يجب، تُحزَنون يسيراً بتجارب متنوِّعة، لكي تكون تزكية إيمانكم، وهي أثمن مِن الذهب الفاني، مع أنه يُمتَحن بالنار، توجد للمدح والكرامة والمجد عند استعلان يسوع المسيح» (1بط 1: 6، 7).

3 - أعمال الرب عجيبة: (آيات 4-6).

(أ) تعاملاته عجيبة: «صنع ذِكراً لعجائبه» (آية 4أ). نصنع ذِكراً لعجائب الله عندما نحتفل بعيدي الميلاد والقيامة فنذكر محبة الله في المسيح الكلمة المتجسِّد، وفي موته وقيامته لأجل خلاصنا. وكان بنو إسرائيل يحتفلون بعيد الفصح ليذكروا عجيبة الخروج من عبودية فرعون، وقد قال الله لهم: «يكون لكم هذا اليوم تذكاراً، فتعيِّدونه عيداً للرب.. فريضة أبدية.. ويكون حين يقول لكم أولادكم: ما هذه الخدمة لكم؟ أنكم تقولون: هي ذبيحة فصحٍ للرب الذي عبر عن بيوت بني إسرائيل في مصر لما ضرب المصريين وخلَّص بيوتنا» (خر 12: 14، 26، 27). ويحتفل المسيحيون بالتناول من العشاء الرباني، لأنهم يذكرون «المسيح فصحنا، قد ذُبح لأجلنا» (1كو 5: 7) فيحتفلون به حسب قول الوحي: «إن الرب يسوع في الليلة التي أُسلم فيها أخذ خبزاً وشكر فكسر وقال: خذوا كلوا هذا هو جسدي المكسور لأجلكم. اصنعوا هذا لذكري. كذلك الكأس أيضاً بعدما تعشوا قائلاً: هذه الكأس هي للعهد الجديد بدمي. اصنعوا هذا كلما شربتم لذكري. فإنكم كلما أكلتم هذا الخبز وشربتم هذه الكأس تخبرون بموت الرب إلى أن يجيء» (1كو 11: 23-26).

وكل من اختبر الحياة الجديدة في المسيح، يذكر كيف حرَّره المسيح من عبودية إبليس، وهو اختبار مجيد لا يُمحى من الذاكرة أبداً. وهذا الاختبار واضح عند البعض، له قصةٌ تُذكَر وتُروَى، كما حدث مع شاول الطرسوسي (أع 9: 4). ولكنه عند البعض الآخر بلا قصة دراماتيكية، كما حدث مع تيموثاوس الذي قال له الرسول بولس: «أتذكَّر الإيمان العديم الرياء الذي فيك، الذي سكن أولاً في جدَّتك لوئيس وأمك أفنيكي، ولكني موقنٌ أنه فيك أيضاً.. وأنك منذ الطفولية تعرف الكتب المقدسة القادرة أن تحكِّمك للخلاص بالإيمان» (2تي 1: 4 و3: 15). ولكن تيموثاوس لم يكن لينسى الكتب المقدسة التي جعلته حكيماً في معرفة طريق الخلاص.

(ب) مراحمه عجيبة: «حنَّان ورحيم هو الرب» (آية 4ب). ولعل أجمل وصف لهذا الحنان هو القول: «ليس بارٌّ ولا واحد. ليس من يفهم. ليس من يطلب الله. الجميع زاغوا وفسدوا معاً، ليس من يعمل صلاحاً، ليس ولا واحد.. إذ الجميع أخطأوا وأعوزهم مجد الله، متبرِّرين مجاناً بنعمته بالفداء الذي بيسوع المسيح، الذي قدَّمه الله كفارة» (رو 3: 10-12، 24، 25). وهناك وصف جميل للرحمة الإلهية يقول: «الله الذي هو غنيٌّ في الرحمة، من أجل محبته الكثيرة التي أحبَّنا بها، ونحن أمواتٌ بالخطايا أحيانا مع المسيح» (أف 2: 4، 5). والربُّ حنان ورحيم حتى إن أخطأ شعبه، كما قال نحميا عن بني إسرائيل: «أبوا الاستماع، ولم يذكروا عجائبك.. وأنت إلهٌ غفورٌ وحنّان ورحيم، طويل الروح وكثير الرحمة، فلم تتركهم.. ولكن لأجل مراحمك الكثيرة لم تُفنهم ولم تتركهم، لأنك إلهٌ حنّان ورحيم» (نح 9: 17، 31). «هل تنسى المرأة رضيعها فلا ترحم ابن بطنها؟ حتى هؤلاء ينسَيْن، وأنا لا أنساك» (إش 49: 15).

(ج) عطاياه عجيبة: «أعطى خائفيه طعاماً» (آية 5أ). الله مضيف كريم، قال له المرنم: «ترتِّب قدامي مائدة تُجاه مضايقيَّ. مسحتَ بالدهن رأسي. كأسي ريا» (مز 23: 5). قال لشعبه في صحراء سيناء: «أنا أمطر لكم خبزاً من السماء، فيخرج الشعب ويلتقطون حاجة اليوم بيومها.. كان في المساء أن السَّلوى صعدت وغطَّت المحلَّة (المعسكر)، وفي الصباح كان سَقيط النَّدى حوالي المحلة، فقال موسى: هو الخبز الذي أعطاكم الرب لتأكلوا» (خر 16: 4، 13، 15). وعندما عطش الشعب أمر موسى أن يضرب الصخرة لتُخرج الماء (خر 17: 6). ويقول المسيح: «انظروا إلى طيور السماء، إنها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع إلى مخازن، وأبوكم السماوي يقوتها. ألستم أنتم بالحري أفضل منها؟» (مت 6: 26).

ولكن الشبع الأكبر هو الشبع الروحي بالمسيح الذي قال: «أنا هو الخبز الحي الذي نزل من السماء. إن أكل أحدٌ من هذا الخبز يحيا إلى الأبد. والخبز الذي أنا أعطي هو جسدي الذي أبذله من أجل حياة العالم» (يو 6: 51).

(د) عهوده عجيبة: «يذكر إلى الأبد عهده» (آية 5ب). قال الله لإبراهيم خليله: «اعلم يقيناً أن نسلك سيكون غريباً في أرضٍ ليست لهم، ويُستعبَدون لهم، فيذلونهم أربع مئة سنة. ثم الأمة التي يُستعبَدون لها أنا أدينها. وبعد ذلك يخرجون بأملاكٍ جزيلة» (تك 15: 13، 14). وصدق الله وعده. فلما أذلَّ فرعون بني إسرائيل «سمع الله أنينهم، فتذكر الله ميثاقه مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب.. وقال: أنا أيضاً قد سمعت أنين بني إسرائيل الذين يستعبدهم المصريون وتذكرتُ عهدي» (خر 2: 24 و6: 5). ووعود الله للمؤمنين صادقة وأمينة، إذ يقول: «أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر» (مت 28: 20). وعندما يدخل سفينة حياتنا يسكُن الريح ويهدأ الموج، لأنه يقول: «تقوا، أنا هو. لا تخافوا» (مر 6: 50). وإن خارت قُوانا في الطريق أو لاطمتنا أمواج الحياة يسرع إلى نجدتنا.

(هـ) مواريثه عجيبة: «أخبر شعبه بقوة أعماله، ليعطيهم ميراث الأمم. أعمال يديه أمانة وحق» (آيتا 6، 7أ). قال موسى الكليم إن الله وعد شعبه بأن «يطرد من أمامك شعوباً أكبر وأعظم منك، ويأتي بك ويعطيك أرضهم نصيباً» (تث 4: 38). فأعطى الرب

الأرض للشعب المستضعَف، الذي خرج من مصر ذليلاً، لا يتقن فنوناً حربية، ولا يحمل سلاحاً، ويعجز عن حماية نفسه. وكان إعطاء الأرض لنسل إبراهيم أمانةً وحقاً، لأن سكان تلك البلاد كانوا خطائين مفسدين في الأرض، فقد قال كليم الله موسى للشعب: «ليس لأجل برّك وعدالة قلبك تدخل لتمتلك أرضهم، بل لأجل إثم أولئك الشعوب يطردهم الرب إلهك من أمامك، ولكي يفي بالكلام الذي أقسم الرب عليه لآبائك إبراهيم وإسحاق ويعقوب.. لأنهم قد عملوا لآلهتهم كل رِجسٍ لدى الرب مما يكرهه، إذ أحرقوا حتى بنيهم وبناتهم بالنار لآلهتهم.. وبسبب هذه الأرجاس الرب إلهك طاردهم من أمامك» (تث 9: 5 و12: 31 و18: 12).

ويتطلع المؤمنون إلى الميراث الأبدي في السماء، الذي وعدهم المسيح به، فيقولون: «مباركٌ الله أبو ربِّنا يسوع المسيح، الذي حسب رحمته الكثيرة ولدنا ثانيةً لرجاءٍ حي بقيامة يسوع المسيح من الأموات، لميراثٍ لا يفنى ولا يتدنَّس ولا يضمحل، محفوظٌ في السماوات لأجلكم، أنتم الذين بقوَّة الله محروسون بإيمانٍ لخلاصٍ مستعدٍّ أن يُعلَن في الزمان الأخير» (1بط 1: 3-5).

4 - أقوال الرب صالحة: (آيتا 7ب، 8).

(أ) مسجَّلة بأمانة: «كل وصاياه أمينة» (آية 7ب). هي وصايا صالحة وأمينة بمعنى أنها تُسعد الإنسان الذي يطيعها، وتحكِّم الجهال الذين يتعلمون منها. «ناموس الرب كامل يردُّ النفس. شهادات الرب صادقة تصيِّر الجاهل حكيماً. وصايا الرب مستقيمة تفرِّح القلب. أمر الرب طاهر ينير العينين. خوف الرب نقي ثابت إلى الأبد. أحكام الرب حقٌّ عادلةٌ كلها» (مز 19: 7-9). وهي مسجَّلة بالأمانة، لأن «كل الكتاب هو موحىً به من الله، ونافع للتعليم والتوبيخ، للتقويم والتأديب الذي في البر، لكي يكون إنسان الله كاملاً، متأهباً لكل عمل صالح» (2تي 3: 16، 17)، لأنه «لم تأت نبوَّة قط بمشيئة إنسان، بل تكلم أناس الله القديسون مسوقين من الروح القدس» (2بط 1: 21). «فعندما كمَّل موسى كتابة كلمات هذه التوراة في كتابٍ إلى تمامها، أمر موسى اللاويين حاملي تابوت عهد الرب قائلاً: خذوا كتاب التوراة هذا وضعوه بجانب تابوت عهد الرب إلهكم، ليكون هناك شاهداً عليكم» (تث 31: 24-26). وهذا معناه أن نص التوراة مسجَّل منذ أيام موسى، وكان كل ملك من ملوك بني إسرائيل يجب أن يحتفظ بنسخة من التوراة كدستورٍ له في الحكم. وقد ظلت كلمة الله متداولة سنة بعد أخرى في أيدي المؤمنين الذين يحبون الله ويحبون كلمته، ويحافظون عليها أكثر من محافظتهم على حياتهم.

(ب) الكلمة ثابتة: «ثابتة مدى الدهر والأبد. مصنوعة بالحق والاستقامة» (آية 8). الله لا يتغيَّر فلا يمكن أن تتغيَّر كلمته أو تتحرَّف، لأنها كلمة ملك الملوك. قال المرنم: «إلى الأبد يا رب كلمتك مثبَّتةٌ في السماوات» (مز 119: 89)، وقال النبي إشعياء: «أما كلمة إلهنا فتثبت إلى الأبد» (إش 40: 8)، وقال المسيح: «إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرفٌ واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل» (مت 5: 18)، وقال أيضاً: «السماء والأرض تزولان، ولكن كلامي لا يزول» (مت 24: 35). لقد أوحى الله بكلمته، وهو ضامنٌ لسلامتها من أي عبث. وإن كان الملك الأرضي لا يقبل التلاعب بكلامه، فكم بالأحرى يحفظ الله كلمته من التحريف والتبديل والتغيير، خصوصاً وهي طريق الخلاص الوحيد!

وكل وعود الله صادقة وأمينة، فقد قال موسى الكليم لبني إسرائيل: «فاعلم أن الرب إلهك هو الله الإله الأمين، الحافظ العهد والإحسان للذين يحبونه ويحفظون وصاياه إلى ألف جيل» (تث 7: 9)، وقال يشوع: «وتعلمون بكل قلوبكم وكل أنفسكم أنه لم تسقط كلمة واحدة من جميع الكلام الصالح الذي تكلم به الرب عنكم. الكل صار لكم» (يش 23: 14)، وقال سليمان: «مباركٌ الرب الذي أعطى راحةً لشعبه إسرائيل حسب كل ما تكلم به، ولم تسقط كلمة واحدة من كل كلامه الصالح الذي تكلم به عن يد موسى عبده» (1مل 8: 56)، وقال الرسول بولس: «أمين هو الله الذي به دُعيتُم إلى شركة ابنه يسوع المسيح ربنا» (1كو 1: 9).

5 - فداء الرب صالح: «أرسل فداءً لشعبه. أقام إلى الأبد عهده. قدوسٌ ومهوبٌ اسمه» (آية 9). الفادي هو الذي يفدي الأسير، وهو الذي يفكُّ أسر المديون العاجز عن وفاء ديونه. و«الفادي» هو «ولي الأمر» و«المخلِّص». وهو القريب الأقرب. والقصد من القول إن الرب فدى شعبه أن الرب قريبٌ من شعبه، وهو وليُّ أمره. وقال المسيح إنه جاء ليعلن قيام سنة اليوبيل، ودعاها «سنة الرب المقبولة» التي ينادي فيها للمأسورين بالإطلاق وللمنسحقين بالحرية (لو 4: 19)، وبهذا أعلن أنه فادينا، ووليُّ أمرنا، وأقرب قريبٍ لنا، الذي وحده يقدر أن يفدينا من خطايانا، وقال: «لا أعود أسمّيكم عبيداً .. لكني قد سمَّيتكم أحباء» (يو 15: 15).

وقد أرسل الله الفداء لشعبه في الخروج من عبودية فرعون، وجعل فرعون وجيشه فدية لهم. ثم أرسل فداءً لشعبه مرة أخرى فأعادهم من السبي، وقال لهم على فم النبي إرميا: «هكذا قال الرب: إن نقضتُم عهدي مع النهار وعهدي مع الليل، حتى لا يكون نهار ولا ليل في وقتهما، فإن عهدي أيضاً مع داود عبدي يُنقَض، فلا يكون له ابن مالكاً على كرسيه، ومع اللاويين الكهنة خادميَّ. كما أن جند السماوات لا يُعدُّ، ورملَ البحر لا يُحصى هكذا أُكثِّر نسل داود عبدي، واللاويين خادميَّ» (إر 33: 20-22).

بهذا الفداء من عبودية إبليس ومن عبودية فرعون أظهر الرب أنه القدوس الذي يستحق أن نحبه ونمجده ونهابه ونتَّقيه ونتعبَّد له، فتجثو له كل ركبة ممن في السماء ومن على الأرض ومن تحت الأرض (في 2: 10).

ثالثاً ـ مخافة الرب الصالح

(آية 10)

(أ) مخافة الرب هي بدء الحكمة: «رأس الحكمة مخافة الرب. فطنةٌ جيدة لكل عامليها» (آية 10أ، ب). والحكمة المقصودة هنا ليست المعرفة العقلية للأمور الفلسفية، بل التطبيق العملي لوصايا الله، فهذه هي التقوى الحقيقية. وقد نصح موسى شعبه بالقول: «ماذا يطلب منك الرب إلهك إلا أن تتَّقي الرب إلهك لتسلك في كل طرقه، وتحبه، وتعبد الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك» (تث 10: 12). وقال الحكيم سليمان: «فلنسمع ختام الأمر كله: اتَّقِ الله واحفظ وصاياه، لأن هذا هو الإنسان كلُّه» (جا 12: 13). وقال الرسول بطرس: «أكرِموا الجميع. أحبّوا الإخوة. خافوا الله. أكرموا الملك» (1بط 2: 17).

والتقوى ومخافة الرب تمنحان الإنسان فطنة وحكمة في كل ما يفعل، فقد قال أيوب: «هوذا مخافة الرب هي الحكمة، والحيدان عن الشر هو الفهم» (أي 28: 28)، وقال الحكيم سليمان: «الحكمة هي الرأس، فاقتنِ الحكمة، وبكل مقتناك اقتنِ الفهم» (أم 4: 7)، وقال النبي هوشع: «مَن هو حكيم حتى يفهم هذه الأمور وفهيمٌ حتى يعرفها؟ فإن طرق الرب مستقيمة، والأبرار يسلكون فيها، وأما المنافقون فيعثرون فيها» (هو 14: 9)، وقال المسيح: «فكل من يسمع أقوالي هذه ويعمل بها أشبِّهه برجلٍ عاقل بنى بيته على الصخر، فنزل المطر وجاءت الأمطار وهبَّت الرياح ووقعت على ذلك البيت، فلم يسقط» (مت 7: 24، 25). و«الفطنة الجيدة تمنح نعمة» (أم 13: 15).

(ب) مخافة الرب تدفع لتسبيحه: «تسبيحه قائم إلى الأبد» (آية 10 ج). يختم المرنم المزمور كما بدأه بالتسبيح للرب. كان قد قال: «عدله قائمٌ إلى الأبد» (آية 3) وهكذا كل صفات الله، الأمر الذي يدفع المؤمن ويشجعه ليحيا حياة التقوى ولأن يقوم بالتسبيح له هنا على الأرض. وعندما يدخل سماءه يظل يسبِّحه إلى الأبد. «أغنّي للرب في حياتي. أرنِّم لإلهي ما دمتُ موجوداً، فيلذُّ له نشيدي، وأنا أفرح بالرب» (مز 104: 33، 34).

اَلْمَزْمُورُ الْمِئَةُ وَالثَّانِي عَشَرَ

1 هَلِّلُويَا! طُوبَى لِلرَّجُلِ الْمُتَّقِي الرَّبَّ، الْمَسْرُورِ جِدّاً بِوَصَايَاهُ. 2نَسْلُهُ يَكُونُ قَوِيّاً فِي الأَرْضِ. جِيلُ الْمُسْتَقِيمِينَ يُبَارَكُ. 3رَغْدٌ وَغِنًى فِي بَيْتِهِ، وَبِرُّهُ قَائِمٌ إِلَى الأَبَدِ. 4نُورٌ أَشْرَقَ فِي الظُّلْمَةِ لِلْمُسْتَقِيمِينَ. هُوَ حَنَّانٌ وَرَحِيمٌ وَصِدِّيقٌ.

5سَعِيدٌ هُوَ الرَّجُلُ الَّذِي يَتَرَأَّفُ وَيُقْرِضُ. يُدَبِّرُ أُمُورَهُ بِالْحَقِّ. 6لأَنَّهُ لاَ يَتَزَعْزَعُ إِلَى الدَّهْرِ. الصِّدِّيقُ يَكُونُ لِذِكْرٍ أَبَدِيٍّ. 7لاَ يَخْشَى مِنْ خَبَرِ سُوءٍ. قَلْبُهُ ثَابِتٌ مُتَّكِلاً عَلَى الرَّبِّ. 8قَلْبُهُ مُمَكَّنٌ فَلاَ يَخَافُ حَتَّى يَرَى بِمُضَايِقِيهِ. 9فَرَّقَ أَعْطَى الْمَسَاكِينَ. بِرُّهُ قَائِمٌ إِلَى الأَبَدِ. قَرْنُهُ يَنْتَصِبُ بِالْمَجْدِ. 10الشِّرِّيرُ يَرَى فَيَغْضَبُ. يُحَرِّقُ أَسْنَانَهُ وَيَذُوبُ. شَهْوَةُ الشِّرِّيرِ تَبِيدُ.

صلاح التقي

كلما تأملنا صفات الله وأعماله انطبعت صورته المقدَّسة العامرة بالمحبة على قلوبنا، لأننا عادةً نتمثَّل بمن نحترم ونسير في خطوات من نحب، فنرغب أن نكون صالحين مثله. إن الناس على دين ملوكهم، فإذا ملك الله على القلب تأثَّرت به الحياة. وقد أورد المرنم في المزمور 111 صفات الله وصلاحه، وفي مزمورنا يشرح كيف يتأثَّر المؤمن بإلهه في سلوكه اليومي. وهناك نصيحة رسولية تقول: «فليكن فيكم هذا الفكر الذي في المسيح» (في 2: 5). فلنتأمل دوماً صفات الله وأعماله ليصوغ حياتنا بحسب صلاحه الإلهي، ويضيء نورنا أمام الناس فيرون أعمالنا الحسنة ويمجدون أبانا الذي في السماوات (مت 5: 16).

ينتهي المزمور السابق بالقول: «رأس الحكمة مخافة الرب. فطنةٌ جيدة لكل عامليها» ويبدأ مزمورنا بالقول: «هللويا. طوبى للرجل المتَّقي الرب، المسرور جداً بوصاياه». فعندما نتأمل الرب نتَّقيه، وعندما نتقيه نصبح مطوَّبين مباركين، ثم نصير مسرورين جداً بوصاياه، لا يجبرنا أحدٌ على طاعتها لأن «الناموس الكامل هو ناموس الحرية» (يع 1: 25) الذي يحررنا من الخوف، فنطيع الرب لا عن اضطرار بل بالاختيار، بدافع الحب.

في هذا المزمور نجد:

أولاً – بيت التقي (آيات 1–5)

ثانياً – ثبات التقي (آيات 6–10)

أولاً ـ بيت التقي

(آيات 1-5)

1 - رب البيت: «هللويا. طوبى للرجل المتَّقي الرب، المسرور جداً بوصاياه» (آية 1). التقي هو الذي يحب الله ويهابه ويطيعه، وهو المسرور بوصاياه، والذي يزيد سروره بوصايا الرب يوماً بعد يوم، و«في ناموس الرب مسرته، وفي ناموسه يلهج نهاراً وليلاً» (مز 1: 2) فيقول: «أن أفعل مشيئتك يا إلهي سُررتُ، وشريعتك في وسط أحشائي» (مز 40: 8)، ويقول: «درِّبني في سبيل وصاياك لأني به سُررت.. كم أحببتُ شريعتك! اليوم كله هي لهجي» (مز 119: 35، 97). تتشكل تصرفاتنا بما تتغذى به عقولنا من أفكار، فإذا قرأنا أخباراً مزعجة انزعجنا، وإذا قرأنا كتباً دنسة هاجمتنا التجارب الدنسة. أما إن قرأنا كلمة الله وجعلناها محل سرورنا المتزايد فإنها تشجعنا على التقوى. فما أسعد الإنسان التقي، لأن التقوى هي أساس السعادة لحياة رب البيت ولحياة أفراد البيت، فهو يقول: «أما أنا وبيتي فنعبد الرب» (يش 24: 15). ويصلي رب البيت التقي قائلاً: «تعرِّفني سبل الحياة. أمامك شِبع سرور في يمينك نِعمٌ إلى الأبد» (مز 16: 11).

2 - أبناء البيت: «نسله يكون قوياً في الأرض. جيل المستقيمين يُبارَك» (آية 2). منذ أن رأى الله أنه ليس جيداً أن يكون آدم وحده، فخلق له حواء معيناً نظيره، نرى الكتاب المقدس ينبِّر كثيراً على أهمية العائلة وضرورة تقوى الآباء والأبناء. والتقي المستقيم مباركٌ في بيته وفي نسله القوي صاحب السيرة الحسنة، الذي تفيح رائحة تقواه في الأرض كلها، والذي يُقال عنه: «مَن هو الإنسان الخائف الرب؟

يعلِّمه طريقاً يختاره. نفسه في الخير تبيت، ونسله يرث الأرض» (مز 25: 12، 13). «أما الودعاء فيرثون الأرض، ويتلذَّذون في كثرة السلامة» (مز 37: 11)، كما قال الرب عن إبراهيم: «يكون أمة كبيرة وقوية، ويتبارك به جميع أمم الأرض، لأني عرفتُه، لكي يوصي بنيه وبيته من بعده أن يحفظوا طريق الرب، ليعملوا براً وعدلاً، لكي يأتي الربُّ لإبراهيم بما تكلم به» (تك 18: 18، 19).

وهناك معنى روحي لنسل التقي القوي في الأرض، هو النسل الروحي الذي يربحه التقي للرب من العالم الخاطئ، كما اختبر الرسول بولس، فقد ولد في الإيمان نسلاً روحياً، قال لبعضهم: «كأولادي الأحباء أنذركم، لأنه وإن كان لكم ربوات من المرشدين في المسيح، ولكن ليس آباءٌ كثيرون، لأني أنا ولدتكم في المسيح بالإنجيل، فأطلب إليكم أن تكونوا متمثِّلين بي» (1كو 4: 14–16). وكل من يرجعون إلى الله بالتوبة يسمعون القول: «فلستم إذاً بعد غرباء ونُزلاً، بل رعيَّةٌ مع القديسين وأهل بيت الله» (أف 2: 19).

3 - غِنى البيت: (آية 3).

(أ) الغنى المادي: ««رَغَدٌ وغِنى في بيته» (آية 3أ). يكرم الرب التقي فلا يحتاج إلى شيء، فيقول: «الرب راعيَّ فلا يعوزني شيء» (مز 23: 1). قال المرنم: «اتَّقوا الرب يا قدّيسيه، لأنه ليس عوَزٌ لمتَّقيه. الأشبال احتاجت وجاعت، وأما طالبو الرب فلا يعوزهم شيء من الخير» (مز 34: 9، 10)، وقال: «كنتُ فتى وقد شخت، ولم أرَ صدِّيقاً تُخُلِّي عنه، ولا ذرية له تلتمس خبزاً. اليوم كله يترأف ويُقرِض، ونسله للبركة» (مز 37: 25، 26). والبار مبارك في بيته، وفي نسله، وفي تقواه «لا يتعبون باطلاً، ولا يلدون للرعب، لأنهم نسلُ مباركي الرب، وذُرِّيتهم معهم» (إش 65: 23).

(ب) الغنى الروحي: «برُّه قائمٌ إلى الأبد» (آية 3ب). التقي غني بالبر، والبر هو الاستقامة، وهو الموقف السليم من الله. والبار هو المستقيم صاحب الموقف السليم من الله، وهو العادل الذي يعطي كل صاحب حقٍّ حقه. وهذا البر قائمٌ إلى الأبد لأنه عطية من الله الصالح للإنسان الذي يتبرَّر بالإيمان، فيدرك أولاً أنه خاطئ فيصرخ: «اللهم ارحمني أنا الخاطي» (لو 18: 13)، ويؤمن أنه «إن اعترفنا بخطايانا فهو أمين وعادل، حتى يغفر لنا خطايانا ويطهرنا من كل إثم» (1يو 1: 9) فيقول: «إذ قد تبرَّرنا بالإيمان لنا سلام مع الله بربنا يسوع المسيح» (رو 5: 1).

في بيت التقي إذاً غِنى النعمة، حتى قال الرسول بولس: «كفقراء ونحن نُغني كثيرين، كأن لا شيء لنا ونحن نملك كل شيء» (2كو 6: 10). فالغِنى الحقيقي ليس غنى الثراء المادي ولا غنى المعرفة العلمية، فإن اثنين لا يشبعان: طالب عِلمٍ وطالب مال. أما الغِنى الحقيقي فهو غنى التقوى النافعة لكل شيء، إذ لها موعد الحياة الحاضرة والآتية (1تي 4: 8). وما أجمل ما وصف به الرسول بولس عائلة تيموثاوس وهو يقول له: «أتذكر الإيمان العديم الرياء الذي فيك، الذي سكن أولاً في جدتك لوئيس وأمك أفنيكي، ولكني موقنٌ أنه فيك أيضاً» (2تي 1: 5) فالجدَّة رفعت الصلاة من أجل الابنة، والجدة والابنة صلّتا معاً من أجل تيموثاوس، فكانت البركة للجدة والأم والابن. وما أسعد الإنسان الذي يقدر أن يقول: أشكرك يا رب من أجل إيمان أبي وأمي.. فإن لم يتوفَّر لك أن تقول هذا القول، فابدأ أنت بأن تكون بركة لأولادك ولأحفادك.

4 - نور البيت: «نورٌ أشرق في الظلمة للمستقيمين. هو حنّان ورحيمٌ وصدِّيق» (آية 4). يسمح الله للأبرار أحياناً أن تكتنفهم الظلمة، أو أن يسيروا في الظلمة. ولكنهم في وادي ظل الموت لا يخافون شراً لأن الرب معهم (مز 23: 4) فقد قال المسيح: «في العالم سيكون لكم ضيق، لكن ثقوا أنا قد غلبتُ العالم» (يو 16: 33). ويشرق نور الله في الظلمة للمستقيمين، أصحاب الموقف السليم من الله، فيُقال عنهم: «نورٌ قد زُرع للصدِّيق، وفرحٌ للمستقيمي القلب» (مز 97: 11) ويُقال لهم: «يشرق في الظلمة نورك، ويكون ظلامك الدامس مثل الظهر» (إش 58: 10) لأن نور الله «يضيء في الظلمة، والظلمة لم تدركه» (يو 1: 5) فنرى بنور الله نوراً (مز 36: 9).

أما مصدر النور المشرق على المؤمن وسط ظلمته فهو أن الرب حنّان ورحيم وصدِّيق، فيقول مع إخوته المؤمنين: «ليس لنا يا رب، ليس لنا، لكن لاسمك أعطِ مجداً، من أجل رحمتك، من أجل أمانتك» (مز 115: 1). ومن رحمة الرب وحنانه أن الظلمة لا تغيِّر إيمان المؤمن، بل تعمِّقه. فعندما تهبُّ العواصف على شجرة حية مغروسة عند المياه الجارية، فإنها تزيد جذورها عمقاً في الأرض. وعندما تجيء تجربةٌ قاسية على المؤمن تعمِّق فيه الإيمان، كما قال المسيح لبطرس: «الشيطان طلبكم لكي يغربلكم كالحنطة، ولكني طلبتُ من أجلك لكي لا يفنى إيمانك. وأنت متى رجعتَ ثبِّت إخوتك» (لو 22: 31، 32).

5 -كرم البيت: «سعيدٌ هو الرجل الذي يترأَّف ويُقرِض» (آية 5أ). بالرغم من الظلمة التي قد تكتنف التقيّ إلا أنه محسنٌ كريم لأنه يريد أن يتشبَّه بالله المحب إله كل رأفة، ولأنه يدرك أن كل ما عنده هو عطية من عند الله له، فهو ليس مالكاً، لكنه وكيل من الله على ما عنده، فيستخدم ما عنده بحكمة، ويعطي مَن حوله رحمة ومالاً ومعرفةً ونصيحة. وهو يطيع الوصية القائلة: «إن كان فيك فقيرٌ.. فلا

تقسِّ قلبك، ولا تقبض يدك عن أخيك الفقير، بل افتح يدك له، وأقرضه قدر ما يحتاج إليه» (تث 15: 7، 8). وقال الحكيم: «ارمِ خبزك على وجه المياه، فإنك تجده بعد أيام كثيرة» (جا 11: 1). وأوصى النبي إشعياء: «أن تكسر للجائع خبزك، وأن تُدخِل المساكين التائهين إلى بيتك. إذا رأيت عرياناً أن تكسوه، وأن لا تتغاضى عن لحمك» (إش 58: 7). وقال المسيح: «أعطوا تُعطَوا، كيلاً جيداً ملبَّداً مهزوزاً فائضاً يعطون في أحضانكم. لأنه بنفس الكيل الذي تكيلون به يُكال لكم» (لو 6: 38). وأوصى الرسول بولس: «مشتركين في احتياجات القديسين، عاكفين على إضافة الغرباء» (رو 12: 13).

قدَّم داود تبرُّعاً سخياً لبناء هيكل للرب، ثم قال: «مَن أنا ومَن هو شعبي حتى نستطيع أن ننتدب (نتبرع) هكذا؟ لأن منك الجميع، ومن يدك أعطيناك» (1أخ 29: 14). فكِّر في شخص تساعده ليقف على قدميه، لتملأ السعادة قلبك، لأن المعطي المسرور يحبه الله (2كو 9: 7).

6 - الحق في البيت: «يدبِّر أموره بالحق» (آية 5ب). التقي الكريم، الذي يترأف ويُقرِض برحمة، يدبِّر كل أموره في التجارة والعمل بالحق والعدل والأمانة، فلا يظلم أحداً ليغتني، ولا يرتشي ليزيد ثروته. إن المال سيد قاسٍ، ومتى سيطرت محبته على القلب فسدت الحياة. ومن تجارب الأغنياء أنهم قد يظلمون الفقير الضعيف، مع أن الحكيم يقول: «ظالم الفقير يعيِّر خالقه» (أم 14: 31). وقد يُصاب الأغنياء بداء الكبرياء وهم يظنون أن ثروتهم نتجت عن ذكائهم، وقد يجعلون المال معبودهم ومتَّكلهم من دون الله، وقد يصيبهم البُخل فلا يعطون الفقير، وقد يعيشون في خوف من ضياع الثروة، وقد يظنون أن أصدقاءهم يحبونهم ليستغلّوهم. ولكن التقوى تنقذ صاحبها من هذه التجارب وتنصره عليها. إن «التقوى مع القناعة تجارةٌ عظيمة، لأننا لم ندخل العالم بشيء، وواضحٌ أننا لا نقدر أن نخرج منه بشيء» (1تي 6: 6، 7).

ثانياً ـ ثبات التقي
(آيات 6-10)

1 - ثبات التقي في حياته: «لأنه لا يتزعزع إلى الدهر» (آية 6أ). التقي لا يخشى من الظلم ولا من الأشرار ولا من المستقبل، وهو «لن يُزحزَح أبداً» (أم 10: 30) لأنه يطيع الوصية: «ألقِ على الرب همَّك وهو يعولك. لا يدع الصدِّيق يتزعزع إلى الأبد» (مز 55: 22). عندما جاءت الأخبار السيئة لأيوب خبرٌ وراء آخر، لم يتزعزع ولم يخطئ ولم ينسب لله جهالة، فرفع الرب وجهه، وردَّ سبيه، وزاد على كل ما كان له ضِعفاً (أي 42: 9، 10)، وتحقَّق له القولُ النبوي: «ذو الرأي الممكن تحفظه سالماً سالماً لأنه عليك متوكل. توكلوا على الرب إلى الأبد، لأن في ياه الرب صخر الدهور» (إش 26: 3، 4).

2 - ثبات ذكر التقي بعد موته: «الصدِّيق يكون لذكرٍ أبدي» (آية 6ب). تبقى الذكرى الصالحة للصدِّيق إلى الأبد عند الله وعند الناس. لقد ضاع ذكر كثيرين من قادة العالم، وإن ذُكر كثيرون منهم فإنهم يُذكرون باللوم. أما الصدِّيق فاسمه مكتوبٌ في سِفر الحياة، وذكراه عاطرة عند إلهه، وفي قلوب أفراد عائلته، وفي أفئدة أعضاء كنيسته.. مَن منّا يقدر أن ينسى يوسف في طهارته وهو يرفض أن يرتكب الشر، أو يتغافل مزامير داود؟ ومن ينسى استجابة صلاة الملك حزقيا؟ أو يهمل ذِكر رحلات الرسول بولس للتبشير بأخبار المسيح المفرحة؟ ومن منّا ينسى أمه التقية أو أباه الصالح؟ حقاً «ذِكرُ الصدّيق للبركة، واسم الأشرار يَبلى» (أم 10: 7).

3 - ثبات التقي بالرغم من خبر السوء: «لا يخشى من خبر سوء. قلبه ثابت متَّكلاً على الرب. قلبه مُمَكَّن فلا يخاف حتى يرى بمضايقيه» (آيتا 7، 8). صاحب الضمير المستريح لا يخاف أخبار السوء، فيقول: «ثابتٌ قلبي يا الله، ثابتٌ قلبي» (مز 57: 7). «قولوا للصدّيق خير» (إش 3: 10) «ونحن نعلم أن كل الأشياء تعمل معاً للخير للذين يحبون الله، الذين هم مدعوّون حسب قصده» (رو 8: 28). إنه مثل الرسول بطرس الذي كان نائماً في السجن رغم أنه كان مربوطاً بسلسلتين، ينتظر إعدامه في اليوم التالي (أع 12: 1-11). أما الشرير فيهرب دون أن يطارده أحد (أم 28: 1)، كما قال قايين: «فيكون كل من وجدني يقتلني» (تك 4: 14). صحيحٌ أن «خوف الشرير هو يأتيه، وشهوة الصدّيقين تُمنَح» (أم 10: 24).

طوبى للرجل المتَّقي الرب، المسرور جداً بوصاياه، فلا يخاف حتى يرى قضاء الله وقد وقع على مضايقيه، فإن «الساكن في ستر العلي في ظل القدير يبيت.. يسقط عن جانبك ألفٌ ورِبوات عن يمينك. إليك لا يقرب. إنما بعينيك تنظر وترى مجازاة الأشرار» (مز 91: 1، 7، 8).

4 - ثبات التقي في العطاء: «فرَّق، أعطى المساكين. برُّه قائمٌ إلى الأبد. قرنه ينتصب بالمجد» (آية 9). التقي سخيٌّ جوّاد، فإن «الديانة الطاهرة النقيَّة عند الآب هي هذه: افتقاد اليتامى والأرامل في ضيقتهم، وحفظ الإنسان نفسه بلا دنس من العالم» (يع 1: 27). فهو يفرِّق ويعطي المساكين، و«يوجد من يفرِّق فيزداد أيضاً، ومَن يُمسِك أكثر من اللائق وإنما إلى الفقر» (أم 11: 24)، و«من يزرع بالشحّ فبالشح أيضاً يحصد، ومن يزرع بالبركات فبالبركات أيضاً يحصد» (2كو 9: 6). وقد اقتبس الرسول بولس قول المرنم هنا في رسالته الثانية إلى كنيسة كورنثوس (2كو 9: 9) وهو يتحدث عن الكنائس الغنية التي ساعدت الكنائس الفقيرة، فالمؤمنون الحقيقيون يفرِّقون ويعطون المساكين، فيبقى برُّهم قائماً أمام الله والناس إلى الأبد، ويسمعون في اليوم الآخِر قول المسيح: «تعالوا يا مباركي أبي، رِثوا المُلك المعدَّ لكم منذ تأسيس العالم.. الحق أقول لكم: بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر فبي فعلتم» (مت 25: 34، 40). فحتى إن كان كل ما لديه مجرَّد لقمة يابسة، فإن الرب يباركها فيأكلها المؤمن في سلام مع عائلته، ويجعلها الرب له خيراً من بيت ملآن ذبائح مع خصام (أم 17: 1). صَدَق الحكيم: «أكلةٌ من البقول حيث تكون المحبة خيرٌ من ثور معلوف ومعه بُغضة» (أم 15: 17).

ويكافئ الرب التقي الذي يفرِّق ويعطي المساكين بأن «قرنه ينتصب بالمجد» وهو تشبيه مأخوذ من قرن الحيوان الذي يرفع رأسه منتصباً بعد عراكه مع حيوان آخر وانتصاره عليه. وقد ترنَّمت حنة أم النبي صموئيل لما أعطاها الله نسلاً بعد سنوات من العُقم، كانت ضرَّتها أثناءها تغيظها وتُذلّها، فقالت: «ارتفع قرني بالرب» (1صم 2: 1). وعندما يعطي المؤمن عشور دخله لعمل الرب ولأعمال الخير يرفع الرب رأسه.

5 - ثبات التقي بالرغم من فاعلي السوء: «الشرير يرى فيغضب. يحرِّق أسنانه ويذوب. شهوة الشرير تبيد» (آية 10). من الغريب أن يكون للتقي أعداء، ولكن المؤسف أنه عندما يكرم الله التقي، يغضب الشرير من بركات الرب للتقي! ولكن غضب الشرير وتحريق أسنانه لن يضرَّ إلا نفسه، فهو يذوب غيظاً وكمداً، بينما ترتفع تراتيل التقي بالشكر لله، ويقول مع المرنم: «الرب لي فلا أخاف. ماذا يصنع بي الإنسان؟ الرب لي بين معينيَّ، وأنا سأرى بأعدائي.. قوتي وترنمي الرب وقد صار لي خلاصاً. صوت ترنُّم وخلاص في خيام الصدّيقين» (مز 118: 6، 7، 14، 15).

والآية الختامية في هذا المزمور تدعو الخاطئ للتوبة، لأنها تعلن عن بركات الرب للتقي، وعن شهوة الشرير البائدة. يحقق الله رغبات قلب التقي الذي يتلذَّذ به فيعطيه سؤل قلبه، أما عاملو الشر فيُقطَعون (مز 37: 4، 9). «طوبى للرجل الذي لم يسلك في مشورة الأشرار.. فيكون كشجرة مغروسة على المياه الجارية، التي تعطي ثمرها في أوانه، وورقها لا يذبل.. ليس كذلك الأشرار، لكنهم كالعُصافة التي تذريّها الريح» (مز 1: 1، 3، 4).

ألا تحب أن تكون تقياً فيبارك الرب حياتك وبيتك ونسلك وعملك؟ «حِدْ عن الشر وافعل الخير واسكن إلى الأبد، لأن الرب يحب الحق ولا يتخلى عن أتقيائه. إلى الأبد يحفظون» (مز 37: 27، 28).

اَلْمَزْمُورُ الْمِئَةُ وَالثَّالِثُ عَشَرَ

1 هَلِّلُويَا! سَبِّحُوا يَا عَبِيدَ الرَّبِّ. سَبِّحُوا اسْمَ الرَّبِّ. 2لِيَكُنِ اسْمُ الرَّبِّ مُبَارَكاً مِنَ الآنَ وَإِلَى الأَبَدِ. 3مِنْ مَشْرِقِ الشَّمْسِ إِلَى مَغْرِبِهَا اسْمُ الرَّبِّ مُسَبَّحٌ. 4الرَّبُّ عَالٍ فَوْقَ كُلِّ الأُمَمِ. فَوْقَ السَّمَاوَاتِ مَجْدُهُ. 5مَنْ مِثْلُ الرَّبِّ إِلَهِنَا السَّاكِنِ فِي الأَعَالِي، 6النَّاظِرِ الأَسَافِلَ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ، 7الْمُقِيمِ الْمِسْكِينَ مِنَ التُّرَابِ، الرَّافِعِ الْبَائِسَ مِنَ الْمَزْبَلَةِ 8لِيُجْلِسَهُ مَعَ أَشْرَافٍ، مَعَ أَشْرَافِ شَعْبِهِ. 9الْمُسْكِنِ الْعَاقِرَ فِي بَيْتٍ أُمَّ أَوْلاَدٍ فَرْحَانَةً! هَلِّلُويَا!

من مشرق الشمس إلى مغربها

تُعرَف المزامير الستَّة 113–118 بمزامير «التهليل المصري» نسبةً لترنيمة الخروج المعجزي من عبودية فرعون، وتمييزاً لها عن مزامير «التهليل العظيم» (120–134) المعروفة بمزامير المصاعد. وكان بنو إسرائيل يرتلون مزامير «التهليل المصري» في ثلاثة أعياد لهم، هي الفصح، والخمسين، والمظال. كما كانوا يرتلونها في مطلع كل شهر قمري (ماعدا مطلع الشهر الأول من السنة). وكان عيد الفصح (ومعناه عيد العبور) أعظم الأعياد (تث 16: 1–6)، لأنه تذكار نجاة بني إسرائيل من عبودية فرعون والخروج من مصر، فكانوا يرتلون مزموري 113، 114 قبل أكل خروف الفصح، ثم يرنمون مزامير 115–118 بعده. وكان موعد عيد الخمسين، أو عيد الأسابيع بعد عيد الفصح بخمسين يوماً، وكان شكراً على الحصاد (خر 34: 22). أما عيد المظال فهو آخر الأعياد السنوية الكبرى (تث 16: 16)، وكان بنو إسرائيل أثناءه يُقيمون في مظال من أغصان الشجر، تذكاراً لإقامتهم أربعين سنة في صحراء سيناء (لا 23: 43). وقد اختارت الكنيسة مزامير 113 و114 و118 لتُرنَّم مساء أحد عيد القيامة، لأن هذا العيد حلَّ محل الأعياد اليهودية الثلاثة الفصح، والخمسين، والمظال.

والذي يذكر حادثة خروج بني إسرائيل من مصر بعد أن سامهم فرعون سوء العذاب يُذهَل من عظمة المعجزات التي جرت، من قتل أبكار المصريين ونجاة أبكار بني إسرائيل، لأن الملاك المُهلك عبر عن البيوت التي رأى دم خروف الفصح على أبوابها، ويُذهل من إطعام شعبٍ بكامله وإروائه أربعين سنة في صحراء سيناء، بالمن واللحم والماء الخارج من الصخرة. فقد كان الخروج مواجهةً بين الإله الحقيقي «يهوه» غير المنظور وآلهة المصريين التي منها العجل أبيس ونهر النيل وغير ذلك. لقد تبنّى الربُّ جماعة المستضعَفين في الأرض لينقذهم من جبروت الطاغوت، أقوى حاكم لأعظم إمبراطورية في وقته. وكان المنتظَر منطقياً أن القوة العظمى تسحق الأمة الضعيفة التي لا تملك سلاحاً. لكن الرب أنقذ الشعب الضعيف، وشقَّ أمامهم البحر الأحمر. وفي ذهولنا من المعجزات الإلهية نقول: «هللويا. سبِّحوا يا عبيد الرب. سبحوا اسم الرب.. لأن القدير صنع بي عظائم واسمه قدوس.. إن كان الله معنا فمن علينا» (مز 113: 1 ولو 1: 49 ورو 8: 31). حقاً «لا مثل لك بين الآلهة يا رب، ولا مثل أعمالك.. لأنك عظيمٌ أنت وصانع عجائب. أنت الله وحدك» (مز 86: 8، 10). ونحن اليوم مهما كنا صغار الشأن أو كنا أقلية، فإن لنا وعد المسيح: «لا تخف أيها القطيع الصغير، لأن أباكم قد سُرَّ أن يعطيكم الملكوت» (لو 12: 32).

ولا زال الله الحي يُجري المعجزات في يومنا. ربما لن تحدث معك معجزة كمعجزة الخروج في حجمها، لكن لا بد قد حدثت معك معجزة فيها صلَّيت، ففتح الله لك طريقاً للنجاة لم تكن تراه، ولا بد أنه سبحانه حماك من قوة غاشمة لم تكن تقدر أن تنقذ نفسك منها. وهناك معجزات أجراها معك الرب الكريم فأنقذك من مخاطر لم تكن تراها فلم تشعر بها ولم تشكر عليها. لكن عندما تعرفها تدرك عظمة عمل الرب معك، وتشترك مع صاحب المزمور في الشكر والتسبيح للرب صانع المعجزات، وتقول: «حينئذ امتلأت أفواهنا ضحكاً وألسنتنا ترنُّماً.. عظَّم الرب العمل معنا، وصرنا فرحين» (مز 126: 1، 3).

وكل من نال الحياة الجديدة في المسيح يشارك بني إسرائيل فرحة عبورهم البحر الأحمر، لأن الحياة الجديدة عبورٌ من العبودية إلى الحرية، ومن الموت إلى الحياة، ومن الظلمة إلى النور، فيقول: «كنت أعمى والآن أبصر» (يو 9: 25)، ويهتف: «هللويا. سبحوا يا عبيد الرب، سبحوا اسم الرب».

في هذا المزمور نجد:

أولاً – دعوة عامة لتسبيح الرب (آيات 1–3)
ثانياً – تسبيح الرب لعظمة شخصه (آيتا 4، 5)
ثالثاً – تسبيح الرب لعظمة عمله (آيات 6–9)

أولاً ـ دعوة عامة لتسبيح الرب
(آيات 1-3)

1 - عبيد الرب يسبِّحون الرب: «هللويا. سبِّحوا يا عبيد الرب. سبحوا اسم الرب» (آية 1). يدعو المرنم سامعيه إلى تسبيح الرب لأنهم عبيده العابدون المُخلصون، الذين يقول الرب لهم: «يا إسرائيل عبدي، يا يعقوب الذي اخترتُه، نسلَ إبراهيم خليلي، الذي أمسكتُه من أطراف الأرض، ومن أقطارها دعوتُه، وقلتُ لك: أنت عبدي، اخترتُك ولم أرفضك» (إش 41: 8، 9). والمؤمنون عبيد الرب لأنه اشترى منهم نفوسهم وكل ما يملكون. كان العبد يُشترى بالمال، أما المؤمنون فقد اشتراهم المسيح لا بفضة ولا بذهب «بل بدم كريم، كما من حمل بلا عيب ولا دنس، دم المسيح» (1بط 1: 19). وبهذا الشراء صرنا ملكيته، نهتف له، ونخضع لتوجيهاته، ونسبِّح اسمه.

الخليقة كلها مِلكٌ للرب الذي أوجدها وأبدعها وأعالها. فماذا يقدم العبد لخالقه وسيده إلا التسبيح الدائم، فالملائكة تشدو له: «قدوس. قدوس. قدوس رب الجنود. مجده ملء كل الأرض» (إش 6: 3). «السماوات تحدث بمجد الله والفلك يخبر بعمل يديه.. الجبال والآكام تُشيد أمامكم ترنُّماً وكل شجر الحقل تصفِّق» (مز 19: 1 وإش 55: 12). «فلنقدِّم في كل حين لله ذبيحة التسبيح، أي ثمر شفاه معترفة باسمه» (عب 13: 15).

ويعتزُّ المؤمنون الحقيقيون بلقب «عبد الرب» فهو اللقب الذي ناله موسى كليم الله 18 مرة في التوراة (أولها تث 34: 5 وآخرها 2أخ 24: 6، 9)، وهو لقب يشوع بن نون خليفة موسى (يش 24: 29 وقض 2: 8)، وهو لقب إيليا النبي الذي قال لله: «أنا عبدك» (1مل 18: 36)، وهو اللقب الذي أطلقه نبوخذنصَّر ملك بابل على الفتية الثلاثة الذين ألقاهم في أتون النار لأنهم أطاعوا الله ورفضوا أن يطيعوا الملك (دا 3: 26)، وهو ما لقَّبت به العذراء القديسة مريم نفسها، فقالت بعد أن بشَّرها الملاك جبرائيل بأنها ستلد المسيح المخلِّص: «هوذا أنا أَمَة الرب. ليكن لي كقولك» (لو 1: 38)، وهو لقب اعتزَّ به الرسول بولس فأطلقه على نفسه في مطلع رسائله، فقال: «بولس عبدٌ ليسوع المسيح» (رو 1: 1) و«بولس عبد الله» (تي 1: 1) لأنه لم ينسَ أنه سقط أمام نور المسيح على وجهه على الأرض قائلاً: «يا رب، ماذا تريد أن أفعل؟» (أع 9: 6 و22: 10)، واعتزَّ به الرسول بطرس فأطلقه على نفسه (2بط 1: 1)، كما أطلقه الرسول يهوذا أيضاً على نفسه (يه 1: 1).

عندما نعصى الرب وندير دفَّة سفينة حياتنا بحسب رغباتنا، نتعب، فنكتشف أننا أخطأنا، ونصرخ طالبين أن يكون هو الملك صاحب السيطرة على حياتنا. ونتعلم الدرس الذي تعلَّمه نبي الله يونان صاحب الحوت، الذي وجَّه وجهه إلى عكس توجيه الله له، فبدل أن يتَّجه إلى نينوى العراقية في الشمال الشرقي، اتَّجه إلى ترشيش الأسبانية في أقصى الغرب، وركب سفينة مسافرة إليها، فهبَّت عاصفةٌ عاتية على السفينة كانت بلاءً على ركابها وحمولتها وعليه هو. ولم تكن النجاة ممكنةً حتى ألقوا به في البحر الهائج ليعيده الحوت إلى حيث شاء الله له أن يكون، فرجع إلى نقطة البداية (يو 1: 3، 17 و2: 10). ولما أطاع يونان توجيه الله باركه وبارك أهل نينوى بكرازته، فتابوا.. فلنذكر أننا عبيد الرب، ولا حقَّ لنا أن نتجه إلا إلى حيث يريد الرب. فلتكن صلاتنا: «اجعلني عبداً لك، وإذ ذاك أصبح حراً. أرغِمني أن أسلِّم سيفي لك فأصبح منتصراً. فلكي أصل إلى العرش ينبغي أن أُلقي تاجي عند قدميك، ولكي أقف ظافراً رافع الرأس ينبغي أن أنحني أمامك». عندها نسبِّح الرب لأننا عبيد الرب.

2 - تسبيح الرب في كل العصور: «ليكن اسم الرب مباركاً من الآن وإلى الأبد» (آية 2). اسم الرب مبارك دائماً في كل وقت وزمان، يدعونه «أبانا الذي في السماوات، ليتقدَّس اسمك» (مت 6: 9). وبسبب بُعد الناس عن الله نظن أحياناً كما ظن النبي إيليا أنه لم يبقَ أحدٌ يعبد الله سوانا. ولكن الرب يشجعنا كما شجع إيليا بقوله: «أبقيتُ سبعة آلاف، كلَّ الرُّكب التي لم تجثُ للبعل، وكلَّ فمٍ لم يقبِّله» (1مل 19: 18). وقال بطرس الرسول لبيت كرنيليوس: «أنا أجد أن الله لا يقبل الوجوه، بل في كل أمة الذي يتَّقيه ويصنع البر مقبول عنده. الكلمة التي أرسلها إلى بني إسرائيل يبشِّر بالسلام بيسوع المسيح. هذا هو رب الكل» (أع 10: 34، 35). هو بالحق رب كل الذين عرفوه مخلِّصاً، فيقولون: «أما نحن فنبارك الرب من الآن وإلى الدهر» (مز 115: 18).

3 - تسبيح الرب في كل مكان: «من مشرق الشمس إلى مغربها اسم الرب مسبَّح» (آية 3). اسم الرب مسبَّحٌ دائماً في كل مكان من الشرق إلى الغرب.. تغرب الشمس عن مكان لتشرق في مكان آخر على الأرض، وفي كل مكان تشرق عليه أو تغرب عنه يوجد من يسبِّح الرب ويهلل له، لأن فيه له شعباً أميناً، يقول عنه: «مِن مشرق الشمس إلى مغربها اسمي عظيم بين الأمم، وفي كل مكان يُقرَّب لاسمي بَخور وتقدمة طاهرة، لأن اسمي عظيم بين الأمم، قال رب الجنود» (مل 1: 11)، ويقول: «أحوِّل الشعوب إلى شفةٍ نقيَّة ليدعوا كلهم باسم الرب، ليعبدوه بكتف واحدة» (صف 3: 9).

ثانياً ـ تسبيح الرب لعظمة شخصه
(آيتا 4، 5)

1 - عظمة الرب بسبب رفعته: «الرب عالٍ فوق كل الأمم. فوق السماوات مجده» (آية 4). «الرب عليٌّ مخوف. ملكٌ كبير على كل الأرض.. الرب قد ملك، ترتعد الشعوب. هو جالس على الكروبيم، تتزلزل الأرض. الرب عظيم في صهيون، وعالٍ هو على كل الشعوب. يحمدون اسمك العظيم والمهوب. قدوس هو» (مز 47: 2 و99: 1-3).. بنى له سليمان هيكلاً عظيماً كان بالنسبة لسليمان ولشعبه آيةً في العظمة، ولكن سليمان في صلاة تدشين الهيكل تساءل في تواضع: «هل يسكن الله حقاً على الأرض؟ هوذا السماوات لا تسعك، فكم بالأقل هذا البيت الذي بنيتُ!» (1مل 8: 27). ولم يكن هيكل سليمان قليلاً، لكنه كان لا شيء بالنسبة لعظمة الرب. لذلك ترفع الخليقة كلها ترنيمها لله هاتفة: «أنت مستحقٌّ أيها الرب أن تأخذ المجد والكرامة والقدرة، لأنك أنت خلقتَ كل الأشياء، وهي بإرادتك كائنةٌ وخُلِقت» (رؤ 4: 11)، كما تهتف الخليقة المفدية قائلة: «للجالس على العرش وللحمل البركة والكرامة والمجد والسلطان إلى أبد الآبدين» (رؤ 5: 13).

2 - عظمة الرب بسبب تفرُّده: «مَن مثل الرب إلهنا الساكن في الأعالي!» (آية 5). رتَّل له موسى وبنو إسرائيل بعد الخروج قائلين: «مَن مثلك بين الآلهة يا رب؟ مَن مثلك معتزاً في القداسة، مَخوفاً بالتسابيح، صانعاً عجائب؟» (خر 15: 11)، وقال له موسى بعد عبور صحراء سيناء: «أيُّ إله في السماء وعلى الأرض يعمل كأعمالك وكجبروتك؟» (تث 3: 24). وتساءل النبي إشعياء: «فبمن تشبِّهون الله، وأيَّ شَبَهٍ تعادلون به؟» (إش 40: 18). حقاً، هل يتساوى المخلوق بالخالق؟ هل هناك وجه شبَه بين الكمال والنقص، أو بين القوة والضعف؟ هل يكون الغني المعطي مثل الفقير المتلقّي؟.. يتَّصف الله بالحب الكامل فهو «الله محبة» (1يو 4: 8، 16)، وهو القادر على كل شيء، وهو القدوس الذي بلا عيب، وهو الحق المطلق. وفي حبه يعتني بخليقته من أزهار وطيور وبشر، حتى أن شعور رؤوسنا جميعَها مُحصاة، أو مرقَّمة عنده (مت 10: 30). وقال المسيح إن عصفورين يُباعان بفلس، وخمسةً تُباع بفلسين، والعصفور الذي سقط من حساب التاجر لم يسقط من حساب الله! ثم قال: «أنتم أفضل من عصافير كثيرة» (لو 12: 7).

وتظهر عظمة الله في أنه يغيِّر طبيعة الخاطئ ليجعل منه إنساناً جديداً. تساءل النبي إرميا: «هل يغيِّر الكوشي جلده، أو النمر رُقَطه؟» (إر 13: 23). والإجابة: لا. لكن في المسيح يصير الفاسد قديساً لأن الله يخلق منه شخصاً جديداً، فقد غيَّر زكا جابي الضرائب من ظالمٍ إلى معطاء، وغيَّر السامرية من خاطئة كان لها خمسة أزواج، والذي كانت تعيش معه لم يكن زوجها، فتوَّبها وجعلها كارزة بالخلاص لأهل بلدها. هذا هو الرب إلهنا الساكن في الأعالي، والذي تنازل إلينا بمحبته في المسيح الكلمة.

ثالثاً ـ تسبيح الرب لعظمة عمله
(آيات 6-9)

1 - الرب يرى الأسافل: «الناظر الأسافل في السماوات وفي الأرض» (آية 6). بالنسبة للعظمة الإلهية تكون السماوات في الأسافل، وكذلك الأرض. فالخالق هو ربُّ الخليقة في السماوات وعلى الأرض، ومع ذلك فهو يتنازل ليسدد احتياج المحتاجين، وينجد المتضايقين ويخلِّصهم من خطاياهم ومن ضيقاتهم. نظر إلى سجن فرعون ورأى يوسف الصدّيق السجين بسبب طهارته، وقد «آذوا بالقيد رجليه. في الحديد دخلت نفسه.. أرسل الملكُ فحلَّه. أرسل سلطانُ الشعب فأطلقه. أقامه سيداً على بيته ومُسلِّطاً على كل مُلكه ليأسُر رؤساءه حسب إرادته، ويعلِّم مشايخه حكمة» (مز 105: 17-22). ونظر إلى أسافل سجن خطية «أغسطينوس» في علاقاته الجنسية الدنسة، وخلق منه «القديس أغسطينوس» الأسقف ومفسِّر الكلمة الإلهية. ولا زال الله هو الأب والراعي والحافظ، فإن عيني الرب نحو

الصدّيقين وأذنيه إلى صراخهم (مز 34: 15) «لأن عيني الرب تجولان في كل الأرض ليتشدَّد مع الذين قلوبهم كاملة نحوه» (2أخ 16: 9).

2 - الرب يُقيم المسكين: «المقيم المسكين من التراب، الرافع البائس من المزبلة ليُجلسه مع أشراف، مع أشراف شعبه» (آيتا 7، 8). اختار الرب جدعون الذي كان يخبط بعض الحنطة ليهرِّبها من غُزاة المديانيين وجعله قاضياً ومنقذاً لبني إسرائيل (قض 6: 11، 14)، واختار شاول البنياميني الذي كان يفتش على أُتن أبيه الضالة ليجعله أول ملك على بني إسرائيل (1صم 9: 3)، و«اختار داود عبده وأخذه من حظائر الغنم. من خلف المرضعات أتى به ليرعى شعبه.. فرعاهم حسب كمال قلبه، وبمهارة يديه هداهم» (مز 78: 70–72). ورتَّلت العذراء المطوَّبة: «تعظِّم نفسي الرب، وتبتهج روحي بالله مخلِّصي، لأنه نظر إلى اتِّضاع أمته.. أنزل الأعزّاء عن الكراسي، ورفع المتَّضعين» (لو 1: 47، 48، 52). واختار المسيح بعض صيادي السمك ليجعل منهم تلاميذه، وليكونوا صيادي الناس (مت 4: 19). وقال الرسول بولس: «اختار الله جُهّال العالم ليُخزي الحكماء، واختار الله ضعفاء العالم ليُخزي الأقوياء، واختار الله أدنياء العالم والمزدَرى وغير الموجود ليُبطل الموجود، لكي لا يفتخر كل ذي جسد أمامه» (1كو 1: 27–29). ويمكنك أن تقارن حالة الابن الضال بعيداً عن بيت أبيه وهو لا يجد ما تأكله الخنازير بحالته عندما رجع إلى بيت أبيه، فأُقيم له احتفال تكريم، ذُبح فيه العجل المسمَّن، وأُعطي حذاءً في رجليه علامة السيادة، وأُلبِس خاتماً في يده لأن أباه أعاد إليه كل ثقته فيه (لو 15: 22).. وهكذا يستبدل الله الفقرَ بالغنى، والعارَ بالشرف، والمتكأ الأخير بالمتكإ الأول، والحزن بالفرح، وعبودية الخطية بحرية مجد أولاد الله، والعمى بالبصر الروحي. وأعظم ما فعله الله معنا أن المسيح نزل إلى أقسام الأرض السفلى لكي يملأ الكل، وأعطى البعض أن يكونوا رسُلاً والبعض أنبياء، والبعض مبشرين، والبعض رعاة ومعلّمين (أف 4: 9–11).

3 - الرب يعطي المحروم: «المُسْكِن العاقر في بيت، أُمَّ أولاد، فرحانةً. هللويا» (آية 9). لعل المرنم كان يذكر سارة زوجة خليل الله إبراهيم، وقد ضاع أملها في أن تلد له وهي في التسعين من العمر، فاقترحت على زوجها أن يتزوَّج جاريتها هاجر ليتحقَّق وعد الله لخليله أنه سيكون أباً لجمهور من الأمم. ولكن الرب أجرى المعجزة مع سارة، وأعلن لها أنها ستلد ابناً، فضحكت من غرابة الوعد ومن استحالة تنفيذه بالقدرة الإنسانية. ولكن وعد الله الحق تمَّ، وولدت سارة إسحاق (ومعنى اسمه: ضحك). وأنجب إسحاق يعقوب أب الأسباط.

أما حنة زوجة ألقانة فقد كانت مذلولة أمام ضرَّتها «فننَّة» لأن فننة كانت ذات أولاد بينما كانت حنة عاقراً، فذهبت حنة إلى الهيكل تشكو لله مرارة نفسها في صلاة طويلة، حتى ظنَّ رئيس الكهنة أنها سكرانة. واستجاب الله طلبتها، ووهبها صموئيل الذي قالت عنه: «لأجل هذا الصبي صلّيت، فأعطاني الرب سؤلي الذي سألتُه من لدُنه» (1صم 1: 27)، ثم جعل الله منه قائداً لشعبه.

ويصف الوحي الكنيسة بمعنى روحي أنها أمٌّ تلد مؤمنين يحبون الله ويطيعونه. وقد تنقضي فترة طويلة دون أن نرى نفوساً ترجع لله تائبة، فندعو مصلّين أن يرجع الخطاة إلى الرب، فيولد للكنيسة أبناء مؤمنون، ويصبح المؤمنون الذين لم يسبق لهم أن ربحوا أحداً للتوبة ذوي أولاد روحيين، فتتحقَّق النبوة القائلة: «ترنَّمي أيتها العاقر التي لم تلد. أشيدي بالترنُّم أيتها التي لم تمخَض، لأن بني المستوحشة أكثر من بني ذات البعل، قال الرب. (يعني مَن لا نتوقع لها أن تلد، بمعنى روحي، سيكون عندها أولاد أكثر من التي نتوقَّع لها أن تلد). أوسِعي مكان خيمتك، ولتُبْسَط شُقق مساكنك. لا تُمسكي. أطيلي أطنابك وشدِّدي أوتادك (لأن الخيمة يجب أن تكبر لتتَّسع لكثيرين). لأنك تمتدّين إلى اليمين وإلى اليسار، ويرث نسلُكِ أمماً، ويُعْمِرُ مدناً خربة» (إش 54: 1–3).

دعونا نرفع عيوننا إلى الحقول التي ابيضَّت للحصاد، فنخرج كفعَلة في كرم الرب، ندعو الناس للتوبة، فيكون كل مؤمن مثل أمٍّ أولادٍ، فرِحاً بالبركة، فنهتف هتاف خاتمة مزمورنا كما بدأناه بالقول: «هللويا». سبحوا الرب.

اَلْمَزْمُورُ الْمِئَةُ وَالرَّابِعُ عَشَرَ

1 عِنْدَ خُرُوجِ إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ، وَبَيْتِ يَعْقُوبَ مِنْ شَعْبٍ أَعْجَمَ، 2كَانَ يَهُوذَا مَقْدِسَهُ، وَإِسْرَائِيلُ مَحَلَّ سُلْطَانِهِ. 3اَلْبَحْرُ رَآهُ فَهَرَبَ. الأُرْدُنُّ رَجَعَ إِلَى خَلْفٍ. 4اَلْجِبَالُ قَفَزَتْ مِثْلَ الْكِبَاشِ، وَالآكَامُ مِثْلَ حُمْلاَنِ الْغَنَمِ. 5مَا لَكَ أَيُّهَا الْبَحْرُ قَدْ هَرَبْتَ، وَمَا لَكَ أَيُّهَا الأُرْدُنُّ قَدْ رَجَعْتَ إِلَى خَلْفٍ، 6وَمَا لَكُنَّ أَيَّتُهَا الْجِبَالُ قَدْ قَفَزْتُنَّ مِثْلَ الْكِبَاشِ، وَأَيَّتُهَا التِّلاَلُ مِثْلَ حُمْلاَنِ الْغَنَمِ؟ 7أَيَّتُهَا الأَرْضُ تَزَلْزَلِي مِنْ قُدَّامِ الرَّبِّ، مِنْ قُدَّامِ إِلَهِ يَعْقُوبَ! 8اَلْمُحَوِّلِ الصَّخْرَةَ إِلَى غُدْرَانِ مِيَاهٍ، الصَّوَّانَ إِلَى يَنَابِيعِ مِيَاهٍ.

الخروج الذي حرك الطبيعة

هذا ثاني مزامير التهليل المصري الستة (مزامير 113–118) التي تعبِّر عن تسبيح بني إسرائيل لما أخرجهم الرب من أرض مصر. في المزمور السابق سمعنا المرنم يتحدث عن محبة الله «الناظر الأسافل» من المساكين والبائسين. أما هذا المزمور فيعلن عن قوة الله التي أنقذت هؤلاء المساكين والبائسين، لأن هذه القوة تعمل في خدمة محبته الفعالة. ويصوِّر مزمورنا الطبيعة وقد تحرَّكت خشية وارتعاداً من مجد الرب الذي يقود شعبه ويقول لهم: »توكلوا على الرب إلى الأبد، لأن في ياه الرب صخر الدهور» (إش 26: 4).

كانت الكنيسة الأولى ترنم هذا المزمور تسبيحاً لله في عيد القيامة، لأنه يعبِّر عن الخروج من قبر وموت، فقد كان بنو إسرائيل أمواتاً في قبر الاستعباد والتعذيب والإهانة، فأقامهم الرب منه وأطلقهم أحراراً. وهذا ما يجري في العهد الجديد بفضل قيامة المسيح الذي بعد أن صُلب وقُبر وقام من بين الأموات صار بكراً بين إخوة كثيرين (رو 8: 29). وبقيامته أعطى كل من يؤمن به رباً وفادياً الرجاء والوعد بالقيامة من قبر خطيته حسب قوله: «الحق الحق أقول لكم إنه تأتي ساعة، وهي الآن، حين يسمع الأموات صوت ابن الله، والسامعون يحيون» (يو 5: 25).

وتتكرر معجزة الخروج في حياة المؤمنين أفراداً وجماعة، كما كررها الرب مع شعبه إذ أعادهم من سبي السنوات السبعين في بابل، فقد كان السبي قبراً ثانياً لبني إسرائيل بعد قبر عبودية مصر، فأخرجهم الرب منه بعد أن ذاقوا مرارة هدم الهيكل، وتوقُّف العبادة، وذل الصمت حزناً وامتناعاً عن ترتيل ترنيمة الرب في أرض غريبة (مز 137: 4). ولا زال الرب يُجري معجزة خروج جديد لنفوس المؤمنين من سبيهم في المرض والفقر والضيق، فيرنمون كلمات هذا المزمور بالشكر والحمد.

في هذا المزمور نجد:

أولاً – الرب يُخرج شعبه من مصر (آيتا 1، 2)

ثانياً – المعجزات التي رافقت الخروج (آيات 3–6)

ثالثاً – تكرار معجزات الخروج (آيتا 7، 8)

أولاً- الرب يُخرج شعبه من مصر
(آيتا 1،2)

1 - أخرجهم: «عند خروج إسرائيل من مصر وبيت يعقوب من شعب أعجم» (آية1). حادثة الخروج من مصر موضوع افتخار كل مؤمن بأعمال الرب المعجزية تجاه خاصته، وهي موضوع تسبيح وحمد للرب الذي وعد ويفي بوعده، ويبقى أميناً لا يقدر أن ينكر نفسه. لقد جاء بنو إسرائيل إلى مصر أعزاء بعد أن رحَّب بهم فرعون يوسف، وخرجوا منها مكرَّمين بعد أن هُزم فرعون الخروج! وفي الدخول والخروج أكرم الرب شعبه. وهذه قصة كل مؤمن يحب الرب. لقد خلق الله الإنسان على صورته كشبَهه، فالإنسان على صورة الرحمان، وأعطاه الرب سلطاناً ومكانة عظيمة. ولما أخطأ الإنسان صار تحت الدينونة العادلة، فجاء المسيح ليعيد لكل من يؤمن به رباً وفادياً حالته الأولى بالميلاد الثاني. فإنه «بإنسان واحد دخلت الخطية إلى العالم، وبالخطية الموت، وهكذا اجتاز الموت إلى

جميع الناس.. لأنه إن كان بخطية الواحد قد ملك الموت بالواحد، فبالأولى كثيراً الذين ينالون فيض النعمة وعطية البر سيملكون في الحياة بالواحد يسوع المسيح» (رو 5: 12، 17).

كانت مصر أرض عبودية لا تعرف الرب، تتكلم لغةً أعجميةً غريبة في الحديث والعبادة، وتتعبَّد لآلهة غريبة. ولكن الرب أنقذ شعبه من الكاتب الذي يسجل أسماء العبيد، ومن الجابي الذي يتقاضى الضرائب، ومن الذي يعد الأبراج التي بُنيت بالتسخير، فقال النبي إشعياء: «قلبك يتذكر الرعب. أين الكاتب؟ أين الجابي؟ أين الذي عدَّ الأبراج؟ الشعب الشرس لا ترى. الشعب الغامض اللغة عن الإدراك، العيي بلسان لا يُفهم» (إش 33: 18، 19).

2- سكن وسطهم: «كان يهوذا مقدسه، وإسرائيل محل سلطانه» (آية 2). أخرج الرب شعبه من أرض العبودية وسكن وسطهم، وجعلهم مقدسه وموضع اهتمامه وعنايته وسلطانه، فقد أمر موسى أن يجهِّز خيمة يجتمع فيها بشعبه ليعلن لهم مشيئته (عد 17: 4). وكانت الخيمة أيضاً تُسمى «المسكن» حيث يسكن الله وسط شعبه (خر 25: 8). وكانت الخيمة تتوسط خيام أسباط بني إسرائيل حسب النظام الموضح في سفر العدد الأصحاح الثاني، فكانت تعلن لهم قداسة الله بسبب طقوس العبادة التي يمارسونها فيها، كما تعلن لهم حضوره المقدس، وتؤكد لهم نعمته، لأنه وهو القدوس يتنازل ليسكن وسطهم ليحبوه ويعبدوه، ويقول كل مؤمن عنه: «الإله الذي أنا له، والذي أعبده» (أع 27: 23). ولم يكتفِ المرنم بالحديث عن الخيمة، بل اعتبر الشعب كله مسكناً لله، كما قال لهم: «أنتم رأيتم ما صنعت بالمصريين. وأنا حملتكم على أجنحة النسور وجئت بكم إليَّ. فالآن إن سمعتم لصوتي وحفظتم عهدي تكونون لي خاصة من بين جميع الشعوب.. وأنتم تكونون لي مملكة كهنة وأمة مقدسة» (خر 19: 4-6). وهكذا صاروا مقدسه، أي هيكله الذي يتمجد فيه، ويمكن أن يُقال لهم: «أما أنتم فجنس مختار، وكهنوت ملوكي، أمة مقدسة، شعب اقتناء، لكي تخبروا بفضائل الذي دعاكم من الظلمة إلى نوره العجيب» (1بط 2: 9).

ثانياً- المعجزات التي رافقت الخروج
(آيات 3-6)

رافق الخروج من مصر معجزات وقع رعبها على المصريين بالرغم من حكمتهم، وعلى الطبيعة بالرغم من جبروتها، فاستسلموا معلنين خضوعهم لسيد الخليقة.

1- تراجعت الحواجز: «البحر رآه فهرب. الأردن رجع إلى خلف» (آية 3). «مدَّ موسى يده على البحر، فأجرى الرب البحر بريح شرقية.. وجعل البحر يابسة وانشقَّ الماء، فدخل بنو إسرائيل في وسط البحر على اليابسة، والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم» (خر 14: 21، 22). «أبصرتك المياه يا الله، أبصرتك المياه ففزعت. ارتعبت أيضاً اللجج» (مز 77: 17). «شقَّقت الأرض أنهاراً.. سيل المياه طما. أعطت اللجة صوتها. رفعت يديها إلى العلاء» (حب 3: 9، 10). وعندما حاول المصريون أن يسيروا في الطريق الذي أوجده الرب بين الأمواج انغلق عليهم فغرقوا بمركباتهم في البحر الذي سخره الرب لنجاه شعبه. «عندما يأتي العدو كنهر فنفخة الرب تدفعه» (إش 59: 19).

وذكر المرنم حادثة ثانية هربت فيها المياه من أمام شعب الرب، يوم عبروا نهر الأردن بقيادة يشوع، بعد أن قال الرب له: «ويكون حينما تستقر بطون أقدام الكهنة حاملي تابوت الرب، سيد الأرض كلها، في مياه الأردن، أن مياه الأردن، المياه المنحدرة من فوق، تنفلق وتقف نداً واحداً.. فتوقفت المياه المنحدرة من فوق وقامت نداً واحداً.. والمنحدرة إلى بحر العربة بحر الملح انقطعت تماماً، وعبر الشعب مقابل أريحا» (يش 3: 13-17).

2- استسلمت المصاعب: «الجبال قفزت مثل الكباش، والآكام مثل حملان الغنم» (آية 4). عندما أعطى الله الشريعة لموسى «كان جبل سيناء كله يدخن من أجل أن الرب نزل عليه بالنار.. وارتجف كل الجبل جداً» (خر 19: 18). «تزلزلت الجبال من وجه الرب، وسيناء هذا من وجه الرب» (قض 5: 5).

واليوم يقف الخاطئ المتجبِّر المتكبِّر مذعوراً أمام صوت الرب الذي يعلن الدينونة على الخطاة، فلا يطمئن إلا بعد أن يحتمي في كفارة المسيح الذبح العظيم. فإن شريعة الله تحكم على الخاطئ بالموت، ولو أنها في الوقت نفسه توجِّهه إلى طريق النجاة بالفداء الذي

دبَّره الله بالصليب، لأنه بدون سفك دم لا تحصل مغفرة. وكل من يحتمي بالمسيح الفادي يقدر أن يـرنم: «لا نخشـى ولـو تزحزحـت الأرض، ولو انقلبت الجبال في قلب البحار» (مز 46: 2)

3- انذهل المشاهدون: «مالك أيها البحر قد هربت؟ ومالك أيها الأردن قد رجعت إلى خلف؟ ومالكن أيتها الجبال قد قفزتن مثل الكباش، وأيتها التلال مثل حملان الغنم؟» (آيتا 5، 6). عندما صاغ المرنم بالروح القدس عبارات هذا المزمور شعر كأنه انتقل بـالروح إلى زمن الخروج ووقف وسط الناجين، يرى عمل الرب حاضراً أمامه، فسأل البحر الأحمر ونهر الأردن عن سبب تراجعهما أمام شعب الله، وسأل جبل سيناء والتلال المحيطة به عن سبب قفزها مثل الكباش وحملان الغنم، وأبدى دهشته من سرعة طاعة الطبيعة وخضوعها لأمر الرب بالمفارقة مع عصيان فرعون وشعبه!

لقد تزعزعت هذه الجبال الراسيات. ولا زلنا في يومنا هذا نرى اهتزاز الثوابت الأرضية أو المعنوية التي نستند عليهـا، مثـل المال وقوته الشرائية، فنتعلم الدرس: «إن زاد الغِنى فلا تضعوا عليه قلباً» (مز 62: 10)، ومثل الصحة أمام مداهمة المرض كما جرى مع أيوب الذي قال: «عظمي قد لصق بجلدي ولحمي، ونجوت بجلد أسناني» (أي 20:19)، ومثل الأصحاب، كما قال بولس: «الجميـع تركوني. لا يُحسب عليهم. ولكن الرب وقف معي وقوّاني» (2تي 4: 16، 17)، ومثل العائلة التي تهجر بالخيانة أو الموت، كما قالـت راعوث لنعمي: «إنما الموت يفصل بيني وبينك» (را 1: 17). هذه كلها تهرب وتنتهي، ولا تبقى لنا إلا أمانة الرب ومحبتـه وعنايتـه، فهذه وحدها هي الثابتة، فنقول للصعوبة: «من أنت أيها الجبل العظيم؟ أمام زربابل تصير سهلاً (أرضاً مستوية)» (زك 4: 7).

ثالثاً _ تكرار معجزات الخروج
(آيتا 7،8)

1- ستستسلم المصاعب: «أيتها الأرض تزلزلي من قدام الرب، من قدام إله يعقوب» (آية 7). إن كان البحر قد هـرب إلـى خلف وقفزت الجبال مثل الكباش، فلماذا لا تتزلزل الأرض أمام الرب سيد الأرض كلها؟ «أضـاءت بروقـه المسـكونة. رأت الأرض وارتعدت. ذابت الجبال مثل الشمع قدام الرب، قدام سيد الأرض كلها. أخبرت السماوات بعدله، ورأى جميع الشعوب مجده» (مـز 97: 4-6). «الذي صوته زعزع الأرض حينئذ، وأما الآن فقد وعد قائلاً: إني مرة أيضاً أزلزل لا الأرض فقط بل السـماء أيضـاً. فقولـه «مرة» أيضاً يدل على تغيير الأشياء المتزعزعة كمصنوعة، لكي تبقى التي لا تتزعزع. لذلك ونحن قابلون ملكوتـاً لا يتزعـزع لـيكن عندنا شكر به نخدم الله.. لأن إلهنا نار آكلة» (عب 12: 26-29).

وسيد الأرض كلها هو «إله يعقوب» «إله العهد» الذي خصَّ يعقوب أبا الأسباط بإعلاناته ومراحمه وعهوده. هو إله العهد، الذي لم يعامل يعقوب حسب أعماله، بل عامله حسب كثرة محبته التي غيَّرت يعقوب فجعلت من المتعقِّب مجاهداً مع الله. وهو نفسه إله العهد الجديد الذي سدَّد الأعواز في عرس قانا الجليل، وأعطى نيقوديموس ولادة جديدة، وتوَّب السامرية، وأعطى مريض بِركة بيـت حِسـدا صحة، وقدَّم للشعب الجائع خبزاً، وفتح عيني المولود أعمى، وهو نور العالم، وهو الراعي الصالح الذي يحمي قطيعه، وهو الخالق الذي أقام لعازر من الموت. وفي كل مرة نتناول فيها من عشاء الرب نسمع القول الكريم: «هذا هو دمي الذي للعهد الجديد الذي يُسـفك مـن أجل كثيرين لمغفرة الخطايا» (متى 26: 28). وإله العهد هذا هو الفاعل في الطبيعة وفي قلوب البشر. «عجيبة هي أعمالـك، ونفسـي تعرف ذلك يقيناً» (مز 139: 14).

2- سيرتوي العطاش: «المحوِّل الصخرة إلى غدران مياه، الصَّوَّان إلى ينابيع مياه» (آية 8). هو إله العناية. لقد أخرج شـعبه من العبودية وسار بهم وسط صحراء قاحلة مدة أربعين سنة، أشبعهم فيها بالمن والسلوى. وعندما تذمروا بسبب نقص الماء أمر موسـى في برية سين أن يضرب الصخرة ليخرج منها ماء ليشرب الشعب «ففعل موسى.. ودعا اسم الموضع مسة ومريبة، من أجل مخاصـمة بني إسرائيل، ومن أجل تجربتهم الرب، قائلين: أفي وسطنا الرب أم لا؟» (خر 17: 7). ولكنهم سرعان ما نسوا فعل الرب، فخاصـموا موسى في برية صين لأجل الماء، فضرب الصخرة «فخرج ماء غزير فشربت الجماعة ومواشيها. هذا ماء مريبة حيـث خاصـم بنـو إسرائيل الرب فتقدس فيهم» (عد 20: 11، 13).

مع هذا الإله الصالح العظيم تسقط حواجز المقاومة وترتوي النفوس العطشى، لأن كل شيء مستطاع عنده، كما أننـا بدونـه لا نقدر أن نفعل شيئاً. فلنطلب منه برجاء، ولنصلِّ بلا ملل، ولنصبر بتوقُّع، فهو الذي يحوِّل العوز إلى وفرة، وفي وقته يسرع به بطرقـه

الحكيمة وقلبه الرحيم. «لا تهتموا قائلين: ماذا نأكل أو ماذا نشرب أو ماذا نلبس. لكن اطلبوا أولاً ملكوت الله وبره وهذه كلها تزاد لكـــم» (مت 6: 31، 33).

اَلْمَزْمُورُ الْمِئَةُ وَالْخَامِسُ عَشَرَ

1 لَيْسَ لَنَا يَا رَبُّ لَيْسَ لَنَا، لَكِنْ لاسْمِكَ أَعْطِ مَجْداً، مِنْ أَجْلِ رَحْمَتِكَ، مِنْ أَجْلِ أَمَانَتِكَ. 2لِمَاذَا يَقُولُ الأُمَمُ: «أَيْنَ هُوَ إِلَهُهُمْ؟» 3إِنَّ إِلَهَنَا فِي السَّمَاءِ. كُلَّمَا شَاءَ صَنَعَ. 4أَصْنَامُهُمْ فِضَّةٌ وَذَهَبٌ عَمَلُ أَيْدِي النَّاسِ. 5لَهَا أَفْوَاهٌ وَلاَ تَتَكَلَّمُ. لَهَا أَعْيُنٌ وَلاَ تُبْصِرُ. 6لَهَا آذَانٌ وَلاَ تَسْمَعُ. لَهَا مَنَاخِرُ وَلاَ تَشُمُّ. 7لَهَا أَيْدٍ وَلاَ تَلْمِسُ. لَهَا أَرْجُلٌ وَلاَ تَمْشِي. وَلاَ تَنْطِقُ بِحَنَاجِرِهَا. 8مِثْلَهَا يَكُونُ صَانِعُوهَا، بَلْ كُلُّ مَنْ يَتَّكِلُ عَلَيْهَا.

9يَا إِسْرَائِيلُ، اتَّكِلْ عَلَى الرَّبِّ. هُوَ مُعِينُهُمْ وَمِجَنُّهُمْ. 10يَا بَيْتَ هَارُونَ، اتَّكِلُوا عَلَى الرَّبِّ. هُوَ مُعِينُهُمْ وَمِجَنُّهُمْ. 11يَا مُتَّقِي الرَّبِّ، اتَّكِلُوا عَلَى الرَّبِّ. هُوَ مُعِينُهُمْ وَمِجَنُّهُمْ. 12الرَّبُّ قَدْ ذَكَرَنَا فَيُبَارِكُ. يُبَارِكُ بَيْتَ إِسْرَائِيلَ. يُبَارِكُ بَيْتَ هَارُونَ. 13يُبَارِكُ مُتَّقِي الرَّبِّ، الصِّغَارَ مَعَ الْكِبَارِ. 14لِيَزِدِ الرَّبُّ عَلَيْكُمْ، عَلَيْكُمْ وَعَلَى أَبْنَائِكُمْ. 15أَنْتُمْ مُبَارَكُونَ لِلرَّبِّ صَانِعِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ. 16السَّمَاوَاتُ سَمَاوَاتٌ لِلرَّبِّ، أَمَّا الأَرْضُ فَأَعْطَاهَا لِبَنِي آدَمَ. 17لَيْسَ الأَمْوَاتُ يُسَبِّحُونَ الرَّبَّ، وَلاَ مَنْ يَنْحَدِرُ إِلَى أَرْضِ السُّكُوتِ. 18أَمَّا نَحْنُ فَنُبَارِكُ الرَّبَّ مِنَ الآنَ وَإِلَى الدَّهْرِ. هَلِّلُويَا!

ليس لنا

هذا هو المزمور الثالث من مزامير «التهليل المصري» الستة. رأينا في أولها (مز 113) محبة الله للذين هم في «أسافل الأرض» وفي الثاني (114) رأينا قدرة الله في خدمة محبته التي تهزُّ الجبال وتجعل البحر يرجع إلى خلف. وفي هذا المزمور نرى أن كل هذه المعجزات ليست بسبب صلاح فينا ولا بر عملناه، إنما من أجل اسمه، فهو «يهديني إلى سبُل البر من أجل اسمه» (مز 23: 3). ويتشابه مزمورنا مع مزمور 118، آخر مزامير «التهليل المصري» في أنهما كانتاتا رائعة، أي أنهما قصيدة تنشدها جوقة مرنمين بمصاحبة الموسيقى. ونرجو من القارئ أن يراجع ما قلناه في مقدمة أول مزامير «التهليل المصري» (مزمور 113) كمقدمة لدراسة هذا المزمور.

يوضح مزمورنا عظمة الرب بالمفارقة مع عجز الأوثان. وهو مزمور عبادة ذو مردّات، تبدأ الجوقة بترنيم آيات 1–8 منه، ثم يتبادل الترنيم كلٌّ من الكاهن والجوقة حتى نهايته. وهذا المنهج في الترنيم وصفه نحميا بقوله: «فوقف الفرقتان من الحمادين في بيت الله، وأنا ونصف الولاة معي» (نح 12: 40).

في هذا المزمور نجد:

أولاً – دعاء لتمجيد اسم الرب (آيات 1–3)

ثانياً – مفارقة بين الرب والوثن (آيات 4–8)

ثالثاً – دعوة للاتكال على الرب (آيات 9–11)

رابعاً – بركة الاتكال على الرب (آيات 12–18)

أولاً _ دعاء لتمجيد اسم الرب
(آيات 1-3)

1 – يمجد اسمه إكراماً لشخصه: «ليس لنا يا رب ليس لنا، لكن لاسمك أعطِ مجداً» (آية 1أ). بكل تواضع يبدأ فريق المرنمين ترنيم هذا المزمور فيطلبون من الرب أن يمجد اسمه، لأنهم لا يستحقون أن يطلبوا مثل هذا الطلب منه. وهم لا يطلبون طلباً لأجل أنفسهم، بل يطلبون أن يمجد اسمه بنجاة شعبه، فإن الذي يضطهدهم يضطهده (أع 9: 4)، والذي يمس حدقة عيونهم يمس حدقة عين الرب (زك 2: 8). وكانت هذه صلاة دانيال: «لا لأجل برنا نطرح تضرعاتنا أمام وجهك، بل لأجل مراحمك العظيمة. يا سيد اسمع. يا سيد اغفر. يا سيد أصغِ واصنع. لا تؤخِّر من أجل نفسك يا إلهي، لأن اسمك دُعي على مدينتك وعلى شعبك» (دا 9: 18، 19). ويجيب

الرب: «ليس لأجلكم أنا صانع.. بل لأجل اسمي القدوس.. فأقدس اسمي العظيم.. فتعلم الأمم أني أنا الرب، يقول السيد الرب، حين أتقدس فيكم قدام أعينهم» (حز 36: 22، 23). «من أجل اسمي أبطئ غضبي، ومن أجل فخري أمسك عنك حتى لا أقطعك. من أجل نفسي.. أفعل. لأنه كيف يدنَّس اسمي؟ وكرامتي لا أعطيها لآخر» (إش 48: 9، 11).

والمؤمن الأمين يرفع صلاته إلى الرب باسم المسيح، لأنه يقبلنا من أجل عمله الكفاري على الصليب، ولأننا في شفاعته ننتظر الإجابة، فإنه «إذ قد تبررنا بالإيمان لنا سلام مع الله بربنا يسوع المسيح، الذي به قد صار لنا الدخول بالإيمان إلى هذه النعمة التي نحن فيها مقيمون» (رو 5: 1، 2).

2 – يمجد اسمه إكراماً لرحمته وأمانته: «من أجل رحمتك من أجل أمانتك» (آية 1ب). ويستمر المرنمون يقولون للرب إنه إن لم يتدخل لينجيهم فسيظن الوثنيون (كما يظن ضعفاء الإيمان منهم) أنه لم يرحم شعبه، ولم يحقق لهم ما سبق أن وعدهم به، وهو الذي قال: «الرب إله رحيم ورؤوف، بطيء الغضب وكثير الإحسان والوفاء» (خر 34: 6). ولذلك قال موسى للشعب: «ليس من كونكم من أكثر سائر الشعوب التصق الرب بكم واختاركم، لأنكم أقل من سائر الشعوب. بل من محبة الرب إياكم وحفظه القسم الذي أقسم لآبائكم» (تث 7: 7، 8).

لقد دعا الرب إبراهيم من أور الكلدانيين وأعطاه وعداً واحداً حققه له برحمته وأمانته. أما نحن مؤمني العهد الجديد فقد دعانا بالمجد والفضيلة، ووهب لنا المواعيد العظمى والثمينة لكي نصير بها شركاء الطبيعة الإلهية (2بط 1: 3، 4). فما أسعدنا باسمه الذي دُعي علينا، وبوعوده الموهوبة لنا في المسيح فادينا.

3 – يمجد اسمه ليخجل الوثنيون: «لماذا يقول الأمم: أين هو إلههم؟» (آية 2). ويمضي المرنمون يطلبون تمجيد اسم الرب حتى لا يسألهم الوثنيون: أين إلهكم؟.. إن كل أعمال الرب عظيمة ومعلنة ومنظورة في الخليقة والطبيعة والعناية، وفوق الكل في الفداء. ولكنه روح غير منظور، لذلك يسأل عابدو الأصنام شعب الرب: أين إلهكم؟.. وعندما يصرخ شعب الرب دون أن ينالوا إجابة سريعة يسألهم الوثنيون: إن كان إلهكم موجوداً فلماذا لا يتدخل ويخلصكم؟.. وقد سبق لأحد المرنمين أن صرخ في انحناء نفسه: «صارت لي دموعي خبزاً نهاراً وليلاً، إذ قيل لي كل يوم: أين إلهك؟.. لماذا أنت منحنية يا نفسي، ولماذا تئنين فيَّ؟ ترجي الله لأني بعد أحمده، خلاص وجهي وإلهي» (مز 42: 3، 11).

4 – يمجد اسمه ليُظهر قوته: «إن إلهنا في السماء، كل ما شاء صنع» (آية 3). بهذه الآية يرد المرنمون على سؤال الوثنيين، فإن إلههم يسكن السماء ويرى كل المضطهَدين ويسمع كل صلواتهم. إنه أبونا الذي في السماوات، وهو الفعال على الأرض، يصنع كل ما يشاء «صنع الثريا والجبار، ويحوِّل ظل الموت صبحاً، ويظلم النهار كالليل. الذي يدعو مياه البحر ويصبها على وجه الأرض. يهوه اسمه» (عا 5: 8). فإن ظن الوثنيون أنه قد تخلى عن شعبه لأنهم مُتعَبون، فليعلموا أنه الحي المخلِّص، وأن كل ما يمرُّ به أولاده من متاعب هو بسماح منه، فيقولون: «لا تشمتي بي يا عدوتي. إذا سقطت أقوم. إذا جلست في الظلمة فالرب نور لي. أحتمل غضب الرب لأني أخطأت إليه، حتى يقيم دعواي ويجري حقي. سيخرجني إلى النور. سأنظر بره» (مي 7: 8، 9). و«كل تأديب في الحاضر لا يُرى أنه للفرح بل للحزن. وأما أخيراً فيعطي الذين يتدربون به ثمر بر للسلام» (عب 12: 11).

ثانياً _ مفارقة بين الرب والوثن
(آيات 4-8)

1 –لا حياة في الأوثان: «أصنامهم فضة وذهب، عمل أيدي الناس. لها أفواه ولا تتكلم. لها أعين ولا تبصر. لها آذان ولا تسمع. لها مناخر ولا تشم. لها أيد ولا تلمس. لها أرجل ولا تمشي، ولا تنطق بحناجرها» (آيات 4–7). اقتُبست هذه الآيات في مزمور 135: 15–18. وهي استمرار لترنيم الجوقة، وفيها يردون على الوثنيين الذين سألوهم: «أين هو إلهكم؟» فيقولون لهم: بل أين آلهتكم أنتم؟ إنها أوثان ميتة لا تنفع ولا تضر، أما إلهنا فهو «في السماء. كل ما شاء صنع». «ماذا نفع التمثال المنحوت حتى نحته صانعه؟.. ويل للقائل للعود: استيقظ، وللحجر الأصم: انتبه. أهو يعلِّم؟ ها هو مطلي بالذهب والفضة، ولا روح البتة في داخله. أما الرب ففي هيكل قدسه، فاسكتي قدامه يا كل الأرض» (حب 2: 18–20). «لأنهم ليسوا آلهة، بل صنعة أيدي الناس. خشب وحجارة فأبادوهم. والآن أيها الرب خلِّصنا فتعلم ممالك الأرض كلها أنك أنت الرب وحدك» (إش 37: 19، 20). أما الرب فيقول أيوب له: «يداك كونتاني وصنعتاني.. كسوتني جلداً ولحماً فنسجتني بعظام وعصب. منحتني حياة ورحمة وحفظت عنايتك روحي» (أي 10: 8، 11، 12).

للأصنام أفواه ولا تتكلم، أما الرب فيتكلم في الوحي في الكتاب المقدس، ويهمس في قلوبنا بالحديث الباطني بكلمات المحبة والنصح والسلام، فإن «الله بعدما كلم الآباء بالأنبياء قديما بأنواع وطرق كثيرة، كلمنا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه» (عب 1: 1، 2).

ومن المؤسف أنه حتى في يومنا هذا لا نزال نرى من يصنعون أصناماً يعبدونها. وهي وإن كانت تختلف عن أوثان الأقدمين في شكلها، إلا أنها تشبهها في صفاتها، فما أكثر من يسجدون لصنم العِلم، والمال، والمركز الاجتماعي، والرياضة، والجنس، والمخدرات، فيعطونها الأولوية الأولى في حياتهم، ويتحولون عن عبادة الإله الواحد، لأنه «حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك أيضاً» (متى 6: 21).

2 – لا حياة في عابدي الأوثان: «مثلها يكون صانعوها، بل كل من يتكل عليها» (آية 8). يشبه العابدون معبوداتهم العمياء الصماء البكماء. فمع أن نسمة القدير وهبتهم الحياة ليعرفوه ويعبدوه ويعيشوا له فينالوا حياة أبدية، إلا أنهم ساروا وراء الباطل وأظلم قلبهم لأن «إله هذا الدهر قد أعمى أذهان غير المؤمنين لكي لا تضيء لهم إنارة إنجيل مجد المسيح الذي هو صورة الله» (2كو 4: 4). لقد فقدوا الحس، فلم يعودوا يستجيبون لصوت الرب، فحكموا على أنفسهم بالهلاك. «لأنه وإن وُجد ما يُسمى آلهة، سواء كان في السماء أو على الأرض.. لكن لنا إله واحد: الآب الذي منه جميع الأشياء، ونحن له. ورب واحد: يسوع المسيح، الذي به جميع الأشياء، ونحن به» (1كو 8: 5، 6).

ثالثاً ـ دعوة للاتكال على الرب
(آيات 9-11)

في هذه الآيات يطلب قائد الجوقة ثلاث مرات، من مختلف طبقات شعبه، أن يتكلوا على الرب، فتجيبه الجوقة معبِّرة عن مختلف طبقات الشعب بأن الرب هو معينهم ومجنُّهم. والمجن ترس كبير، هو قطعة خشب مغطاة بجلد، يصدُّ به حامله سهام الأعداء.

1– دعوة بني إسرائيل: «يا إسرائيل، اتكل على الرب» (آية 9أ). هذه دعوة من قائد جوقة الترنيم. والاتكال على الرب يعني الثقة في قدرته التي ترفع وتحمل وتنجي، فقد قال: «اسمعوا لي يا بيت يعقوب وكل بقية إسرائيل المحمَّلين عليَّ من البطن، المحمولين من الرحم. وإلى الشيخوخة أنا هو وإلى الشيبة أنا أحمل» (إش 46: 3، 4).. والاتكال يعني الخضوع والتسليم الكامل لإرادة الرب الصالحة وهو يُجري، «ألقِ على الرب همك فهو يعولك. لا يدع الصدِّيق يتزعزع إلى الأبد» (مز 55: 22).

وتردُّ الجوقة على القائد: «هو معينهم ومجنهم» (آية 9ب). «حتى إننا نقول واثقين الرب معين لي فلا أخاف. ماذا يصنع بي إنسان؟» (عب 13: 6).

2- دعوة الكهنة: «يا بيت هارون، اتكلوا على الرب» (آية 10أ). هذه دعوة من القائد.

وتردُّ الجوقة على القائد: «هو معينهم ومجنهم» (آية 10ب).

3– دعوة الأتقياء: «يا متقي الرب، اتكلوا على الرب» (آية 11أ). يدعو القائد كل متقي الرب من كل قبيلة ولسان وشعب وأمة، الذين أنار الرب قلوبهم فعرفوه وأحبوه وتبعوه، ليتكلوا عليه، فإنه «في كل أمة الذي يتقيه ويصنع البر مقبول عنده» (أع 10: 35).

وترد الجوقة على القائد: «هو معينهم ومجنهم» (آية 11ب).

رابعاً ـ بركة الاتكال على الرب
(آيات 12-18)

تستمر الجوقة في آيتي 12، 13 ترنم رداً على قائد الجوقة.

1– الرب يذكر المتكلين عليه: «الرب قد ذكرنا فيبارِك» (آية 12أ). هو السيد في سمائه، الذي يذكر مخلوقاته ويعتني بها، فلا ينسى حتى عصفوراً يسقط على الأرض (مت 10: 29). «لأنه يوصي ملائكته بك لكي يحفظوك في كل طرقك» (مز 91: 11). «هوذا الله خلاصي فأطمئن ولا أرتعب، لأن ياه يهوه قوتي وترنيمتي وقد صار لي خلاصاً» (إش 12: 2). وقد يظن الأتقياء في شدة ضيقهم أنه نسيهم، فيشجعهم بقوله: «هل تنسى المرأة رضيعها؟.. حتى هؤلاء ينسين وأنا لا أنساك. هوذا على كفيَّ نقشتك» (إش 49: 14-16).

يذكر الرب الإنسان في خطيته وضلاله ليتوبّه، ويذكره بالمواعيد العظمى والثمينة التي يحققها له، ويذكره في احتياجاته المادية فيباركه، ويذكره في مرضه فيبرئه، ويقول: «هئنذا واقف على الباب وأقرع. إن سمع أحد صوتي وفتح الباب أدخل إليه وأتعشى معه وهو معي» (رؤ 3: 20). ويهتف الأتقياء: «باركي يا نفسي الرب ولا تنسي كل حسناته» (مز 103: 2).

2– الرب يبارك المتكلين عليه: «يبارك بيت إسرائيل. يبارك بيت هارون. يبارك متقي الرب الصغار مع الكبار» (آيتا 12ب، 13). رنمت الجوقة رداً على القائد أن الله يذكر جميع المتكلين عليه، وهنا يرنمون أنه يباركهم ببركته التي تُغني، ولا يزيد الله معها تعباً (أم 10: 22). بارك إبراهيم لما أطاع وجعله بركة (تك 12: 2، 3)، ويبارك نسل إبراهيم المؤمن من كل جنس وشعب. إنه يبارك متقي الرب من صغار الأعمار أو حديثي الإيمان، كما بارك اللص التائب الذي ناداه: «اذكرني يا رب متى جئت في ملكوتك. فقال له: اليوم تكون معي في الفردوس» (لو 23: 42). ويبارك الكبار الذين أمضوا معه حياة طويلة عميقة في أُنسٍ ومحبة وعبادة، كما بارك سمعان الشيخ وحنَّة النبية اللذين كانا ينتظران خلاص الرب بمولد المسيح، فرأياه بالعيان (لو 2). فإنه «طوبى لكل من يتقي الرب ويسلك في طرقه.. طوباك وخير لك. امرأتك مثل كرمة مثمرة.. بنوك مثل غروس الزيتون.. هكذا يُبَارَك الرجل المتقي الرب» (مز 128).

3- الرب يزيد البركة للمتكلين عليه: «ليزد الرب عليكم. عليكم وعلى أبنائكم. أنتم مباركون للرب الصانع السماوات والأرض» (آيتا 14، 15). هاتان الآيتان ردُّ قائد فرقة الترنيم على الفرقة التي قالت إن الرب يذكر وسيبارك، فيقول لهم إن الله سيزيد لهم البركة، بأن يزيدهم عدداً ويُنعم عليهم المزيد من خيراته.

حقق الرب وعده لإبراهيم أن يكون نسله كرمل البحر في الكثرة وكنجوم السماء في العدد. وعندما جاءوا إلى مصر بدعوة من يوسف كانوا نفراً قليلاً، ولكنهم غادروها عدداً غفيراً، وقد باركهم الرب بكل عنايته، وقال لهم موسى: «الرب إلهكم قد كثركم.. الرب إله آبائكم يزيد عليكم مثلكم ألف مرة ويباركك كما كلمكم» (تث 1: 11). ويطلب قائد الفريق من الرب أن يبارك أبناء جيله فيمنحهم بركة فوق بركة ونعمة فوق نعمة، فيكونون ملكاً للرب، وتتبارك ذريتهم لتكون أيضاً للرب، ويكون شعار الجميع: «أما أنا وبيتي فنعبد الرب» (يش 24: 15)، «ويُعرَف بين الأمم نسلهم وذريتهم في وسط الشعوب. كل الذين يرونهم يعرفونهم أنهم نسل باركه الرب» (إش 61: 9)، كما وُصف إيمان تيموثاوس أنه عديم الرياء سكن أولاً في جدته لوئيس وأمه أفنيكي (2تي 1: 5).

«مباركون للرب». تحل بركة الرب الذي خلق السماء والأرض على كل الذين يتَّقونه، ويمنحهم خيرات السماء والأرض، فيسبحون له ويكونون مباركين منه وله، فيجعلهم ملح الأرض ونور العالم، فيضيء نورهم قدام الناس ويرون أعمالهم الحسنة ويمجدون أباهم الذي في السموات (مت 5: 13–16).

4- الجميع يباركون الرب: (آيات 16–18). هنا تردُّ الجوقة على القائد.

(أ) يباركون من أعطاهم الأرض: «السماوات سماوات للرب، أما الأرض فأعطاها لبني آدم» (آية 16). قال قائد جوقة الترنيم في آية 15 إن الرب خلق السماوات والأرض، فتجيبه الجوقة أنه هو خالقها، ولكنه جعل البشر خلفاءه ووكلاءه فيها، يعملون فيها ويحفظونها (تك 2: 15). وبهذا أعطاهم امتيازاً، وحمَّلهم بمسؤولية. و«طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض» (مت 5: 5).

(ب) يباركون من أعطاهم الحياة: «ليس الأموات يسبحون الرب ولا من ينحدر إلى أرض السكوت. أما نحن فنبارك الرب من الآن وإلى الدهر» (آيات 17، 18). وتستمر الجوقة تقول للقائد إن شعب الرب يغتنمون فرصة الحياة الحاضرة لتسبيح الرب والترنم له، ولا بد أن الأتقياء سيعمرون طويلاً ليستمر تسبيح الرب. ولم يذكر المرنمون شيئاً عن الترنيم في الأبدية لأن فكرة الخلود كانت غامضة عندهم، عبَّر عنها داود بقوله: «ليس في الموت ذكرك. في الهاوية من يحمدك؟» (مز 6: 5)، وقال الملك حزقيا: «لأن الهاوية لا تحمدك. الموت لا يسبحك. لا يرجو الهابطون إلى الجب أمانتك» (إش 38: 18). أما نحن فنشكر الله أن الإنجيل أنار لنا الحياة وأنار لنا الخلود، بعد أن أبطل المسيح شوكة الموت وهزم الهاوية (2تي 1: 10 و1كو 15: 55). وبهذا ندرك أن لنا دائماً فرصة الترنيم والتسبيح لله في الأرض وفي السماء. وقد رأى يوحنا الرائي ربوات ربوات يهتفون بصوت عظيم: «مستحق هو الحمل المذبوح أن يأخذ القدرة والغِنى والحكمة والقوة والكرامة والمجد والبركة». وسمع كل الخليقة تقول: «للجالس على العرش وللحمل البركة والكرامة والمجد والسلطان إلى أبد الآبدين» (رؤ 5: 12، 13).

يبارك الله الأتقياء ببركات السماء والأرض، فيباركونه أثناء حياتهم على الأرض، كما يباركونه عندما يقفون أمام عرشه هاتفين «هللويا» سبحوا الرب! سبحان الله!